كتاب الأخلاق والسير

في

مداواة النفوس

تأليف

الامام أبي محمد علي بن احمد بن سعيد
ابن حزم الأندلسي القرطبي المتوفى
سنة ٤٥٦ رحمه الله

اعتنى بتصحيحه وطبعه وضبط كلماته اللغوية وشرح بعضها

احمد عمر المحمصاني الأزهري

حقوق الطبع محفوظة

(طبع بمطبعة السعادة بجوار ديوان محافظة مصر)
« لصاحبها محمد اسماعيل »

بسم الله الرحمن الرحيم

ثقتي بالله وحده

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ، ويكافئ مزيده ، وصلى الله على سيدنا محمد وجميع الأنبياء والمرسلين ، وآلهم والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين ﴿ أما بعد ﴾ فقد أظفرني الله بهذا الكتاب الجليل الممتع الجامع لما يلزم معرفته والتخلق به من مكارم الاخلاق ومحاسن الآداب والحكم ، وقد جمع فيه مؤلفه رحمه الله معاني كثيرة استفادها بمرور الأيام وتعاقب الاحوال بما منحه الله عز وجل وقد أنفق فى ذلك أكثر عمره فهو نتيجة اختبار جليل وبحث عظيم وابتدأه بمداواة النفوس وإصلاح الأخلاق لما يترتب عليهما من المنافع الجمة والاوصاف المهمة وترى المؤلف فى بعض الأبواب يذكر مداواته لنفسه ويعرّف المطالع كيف يأخذ فى اكتساب الفضائل حتى يتحلى بها وكيف يعمل في اقتلاع جذور الرذائل حتى يتخلى عنها فيكون انساناً كاملا ، وعضواً فى الهيئة الاجتماعية عاملا ، فلذا رأيت ان أتحف به قراء العربية لينتفعوا بما اشتمل عليه وليتذكر أولو الألباب وابتدأته بترجمة المؤلف إعلاماً بعظيم قدره ورفعة شأنه لدى أهل العلم سابقهم ولاحقهم وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب

أحمد عمر المحمصاني
الازهري

ترجمة المؤلف

(ولد سنة ٣٨٤ وتوفي سنة ٤٥٦ هجرية)

هو الامام الجليل أبو محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الفارسي الظاهري من أهل قُرطُبة تجوّل بالأندلس روى عن القاضي يونس بن عبد الله وأبي بكر حمام بن أحمد القاضي وأبي محمد ابن نبوش القاضي وأبي عمر بن الجسور وغيرهم

وهو أحد الأفراد الذين وقفوا أنفسهم على نشر العلم وتحصيله مع الجهر بالحق وإفادة الناس ولم يبال بما اعترضه من الموانع في هذا السبيل

ومما يدل على ان غايته من حياته انما كانت خالصة لنفع العباد والأخذ بالعلم على الوجه الأكمل والعمل الأتم قوله

مُناي من الدنيا علوم أبثها وأنشرها في كل بادٍ وحاضر
دعاء الى القرآن والسنة التي تناسى رجال ذكرها في المحاضر

وقوله

أبن وجه قول الحق في نفس سامع ودعه فنور الحق يسري ويشرق
سيؤنسه وقتاً فينسى نفاره كما نسي القيد الموثق مطلق

قال القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد كان أبو محمد بن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار

وقال أبو عبد الله الحميدي كان عالماً حافظاً بعلوم الحديث وفقهه مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة متفنناً في علوم جمة عاملاً بعلمه زاهداً في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه قبله في الوزارة وتدبير

الملك متواضعاً ذا فضائل جمة وتآليف كثيرة فى كل ما تحقق به من العلوم وجمع من الكتب فى علم الحديث والمصنفات والمسندات كثيراً وسمع سماعاً جماً وأول سماعه من ابن الجسور قبل الأربعمائة (الى أن قال) وما رأينا مثله فيما اجتمع له مع الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين وكان له فى الآداب والشعر نفس واسع وباع طويل وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره كثير وقد جمعناه على حروف المعجم ومنه

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا ... فجائعه تبقى ولذاته تفنى
اذا أمكنت فيه مسرّة ساعة ... تولّت كمرّ الطرف واستخلفت حزنا
الى تبعاتٍ فى المعاد وموقف ... نودّ لديه اننا لم نكن كنا
حصلنا على همّ وإثم وحسرة ... وفات الذي كنا نلذ به عنا
حنين لما ولّى وشغل بما أتى ... وغمّ لما يرجى فعيشك لا يهنا
كأن الذي كنا نسرّ بكونه ... اذا حققته النفس لفظ بلا معنى

ومن شعره قوله وقد أحرق المعتضد بن عباد كتبه باشبيلية

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو فى صدري
يسير معي حيث استقلّت ركائبي ... وينزل ان أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رَقّ وكاغد ... وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا فى المكاتب بدأة ... فكم دون ما تبغون للّه من سرّ

وكان أبو محمد بن حزم على كثرة علمه وعقله شديد اللهجة صعب الطريقة ولعل ذلك ناتج عن العلة الشديدة التي كانت أصابته كما قال عن نفسه في هذا الكتاب فولّدت عليه ربواً فى الطحال شديداً فولّد ذلك عليه ضجراً وضيق خلق الخ ما قال فسبحان من لا يعتريه التغيّر والزوال

قال صاعد كتب اليّ أبو محمد بن حزم يقول بخطه ولدت بقرطبة في الجانب الشرقي في ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس وبعد سلام الامام من صلاة الصبح آخر ليلة الأربعاء آخر يوم من شهر رمضان المعظم وهو اليوم السابع من نوفمبر سنة ٣٨٤ هجرية بطالع العقرب

قال صاعد ونقلت من خط ابنه أبي رافع ان أباه توفي رحمه الله عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ٤٥٦ فكان عمره رحمه الله ٧١ سنة وعشرة أشهر وتسعة وعشرين يوماً

مؤلفاته

كثيرة قال صاعد بن أحمد أخبرني أبو رافع الفضل بن علي (ابن المترجم) انه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة اه ونحن نذكر بعض مؤلفاته التي ذكرها المؤرخون وهي (١) الفصل بين أهل الأهواء والنحل (٢) الصادع والرادع على من كفّر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على فرق التقليد (٣) شرح حديث الموطأ والكلام على مسائله (٤) الجامع في حد صحيح الحديث (٥) التلخيص والتخليص في المسائل النظرية وفروعها التي لا نص عليها في الكتاب والحديث (٦) منتقى الاجماع (٧) الامامة والخلافة في سير الخلفاء ومراتبهم (٨) كتاب أخلاق النفس (٩) كتاب كشف الالتباس مابين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس (١٠) الايصال الى فهم الخصال الجامعة لجُمَل شرائع الاسلام في الواجب والحلال والحرام والسنة والاجماع أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين في مسائل الفقه والحجة لكل طائفة وعليها (١١) الإحكام لأصول الأحكام

وهو فى غاية التقصّي وإيراد الحجج موجود بالكتبخانة المصرية منه نسختان (فى علم الاصول) (١٢) كتاب المحلّى بالآثار فى شرح المجلّى بالاختصار على ما أوجبه القرآن والسنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موجود بالكتبخانة المصرية (في فقه الامام أحمد بن حنبل) (١٣) كتاب مداواة النفوس وهو هذا الكتاب الذي نحن بصدده وعرف بالأخلاق والسير (١٤) كتاب في الاجماع ومسائله على أبواب الفقه (١٥) كتاب في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض (١٦) كتاب مهم السنن في الملل والنحل (١٧) كتاب اظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والانجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لايحتمل التأويل قال ابن خلكان وهذا معنى لم يسبق اليه (١٨) التقريب بحد المنطق والمدخل اليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية فانه سلك فى بيانه وإزالة سوء الظن عنه طريقة لم يسلكها أحد قبله (١٩) نقط العروس جمع فيه كل غريبة ونادرة وهو مفيد جداً (٢٠) كتاب حجة الوداع (٢١) جمهرة الأنساب اه ملخصاً من كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس لأبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال ومن بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس لأحمد بن يحيى الضبي ومن وفيات الأعيان لابن خلكان ومن مجلة المقتبس لمنشئها محمد أفندي كردعلي ومن كتاب آثار الأدهار مع بعض ايضاح وزيادات

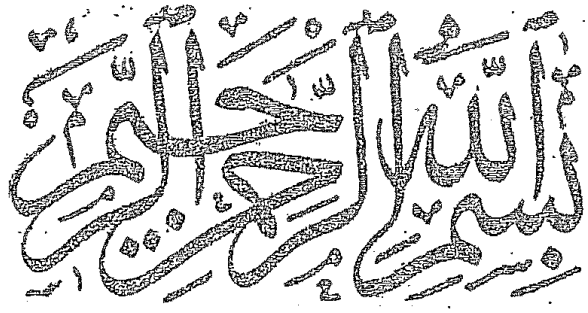

﴿ قال أبو محمد علي بن أحمد بن حزم رضي الله عنه ﴾

الحمد لله على عظيم مننه ، وصلى الله على محمد عبده وخاتم أنبيائه ورسله وسلم تسليما وأبرأ اليه تعالى من الحول والقوة وأستعينه على كل ما يعصم في الدنيا من جميع المخاوف والمكاره ويخلّص في الاخرى من كل هول ومضيق ﴿ أما بعد ﴾ فاني جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة أفادنيها واهب التمييز تعالى بمرور الايام وتعاقب الاحوال بما منحني عز وجل من التهمم بتصاريف الزمان والإشراف على أحواله حتى أنفقت في ذلك أكثر عمري وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له والفكرة فيه على جميع اللذات التي تميل اليها أكثر النفوس وعلى الازدياد من فضول المال وزممت [1] كل ما سبرت من ذلك بهذا الكتاب لينفع الله تعالى به من يشاء من عباده

(١) زمّ الشيء يزمه زماً فانزمّ شدّه اه من لسان العرب

ممن يصل اليه بما أتعبت فيه نفسي وأجهدتها فيه وأطلت فيه فكري فيأخذه عفواً وأهديته اليه هنيئاً فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال وعقد الاملاك اذا تدبره ويسّره الله تعالى لاستعماله وأنا راجٍ في ذلك من الله تعالى أعظم الأجر لنيتي في نفع عباده واصلاح ما فسد من أخلاقهم ومداواة علل نفوسهم وبالله أستعين

﴿ فصل في مداواة النفوس واصلاح الأخلاق ﴾

لذة العاقل بتميزه ولذة العالم بعلمه ولذة الحكيم بحكمته ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده أعظم من لذة الآكل بأكله والشارب بشربه والواطئ بوطئه والكاسب بكسبه واللاعب بلعبه والآمر بأمره وبرهان ذلك أن الحكيم والعاقل والعالم والعامل واجدون لسائر اللذات التي سمينا كما يجدها المنهمك فيها ويحسّونها كما يحسها المقبل عليها وقد تركوها وأعرضوا عنها وآثروا طلب الفضائل عليها وانما يحكم في الشيئين من عرفهما لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر

اذا تعقبت الامور كلها فسدت عليك وانتهيت في آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا الى أن الحقيقة انما

هي العمل للآخرة فقط لأن كل أمل ظفرت به فعقباه حزن اما بذهابه عنك واما بذهابك عنه ولا بد من أحد هذين الشيئين الا العمل لله عز وجل فعقباه على كل حال سرور فى عاجل وآجل أما العاجل فقلة الهم بما يهتم به الناس وانك به معظم من الصديق والعدو وأما فى الآجل فالجنة

تطلبت غرضا يستوي الناس كلهم فى استحسانه وفي طلبه فلم أجده الا واحداً وهو طرد الهم فلما تدبرته علمت ان الناس كلهم لم يستووا فى استحسانه فقط ولا فى طلبه فقط ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم وتباين هممهم وارادتهم لا يتحركون حركة أصلا الا فيما يرجون به طرد الهم ولا ينطقون بكلمة أصلا الا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم فمن مخطئ وجه سبيله ومن مقارب للخطأ ومن مصيب وهو الاقل من الناس فى الاقل من أموره فطرد الهم مذهب قد اتفقت الامم كلها منذ خلق الله تعالى العالم الى أن يتناهى عالم الابتداء ويعاقبه عالم الحساب على أن لا يعتمدوا بسعيهم شيئاً سواه وكل غرض غيره ففي

الناس من لا يستحسنه اذ فى الناس من لا دين له فلا يعمل للآخرة وفي الناس من أهل الشر من لا يريد الخير ولا الامن ولا الحق وفى الناس من يؤثر الخمول بهواه وارادته على بعد الصيت . وفى الناس من لا يريد المال ويؤثر عدمه على وجوده ككثير من الانبياء عليهم السلام ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة . وفي الناس من يبغض اللذات بطبعه ويستنقص طالبها كمن ذكرنا من المؤثرين فقد المال على اقتنائه وفي الناس من يؤثر الجهل على العلم كاكثر من ترى من العامة وهذه هى أغراض الناس التى لا غرض لهم سواها

وليس فى العالم مذ كان الى أن يتناهى أحد يستحسن الهم ولا يريد طرده عن نفسه فلما استقر في نفسي هذا العلم الرفيع وانكشف لي هذا السر العجيب وأنار الله تعالى لفكري هذا الكنز العظيم بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة الى طرد الهم الذي هو المطلوب للنفس الذي اتفق جميع أنواع الانسان الجاهل منهم والعالم والصالح والطالح على السعي له فلم أجدها الا التوجه الى الله عز وجل بالعمل للآخرة . وإلا فانما طلب المال طلابه ليطردوا به همّ الفقر

عن أنفسهم وانما طلب الصوت [1] من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الاستعلاء عليها وانما طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه هم فوتها وانما طلب العلم من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الجهل . وانما هشّ الى سماع الاخبار ومحادثة الناس من يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه هم التوحّد ومغيب أحوال العالم عنه وانما أكل من أكل وشرب من شرب ونكح من نكح ولبس من لبس ولعب من لعب واكتنّ من اكتن وركب من ركب ومشى من مشى وتودع من تودع ليطردوا عن أنفسهم اضداد هذه الافعال وسائر الهموم . وفي كل ما ذكرنا لمن تدبره هموم حادثة لابد لها من عوارض تعرض في خلالها وتعذّر مايتعذر منها وذهاب مايوجد منها والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة وأيضاً نتائج سوء تنتج بالحصول على ماحصل عليه من كل ذلك من خوف منافس أو طعن حاسد أو اختلاس راغب أو اقتناء عدوّ مع الذم والاثم وغير ذلك . ووجدت العمل للآخرة سالماً من كل عيب خالصاً من كل كدر موصلا الى طرد الهم على الحقيقة ووجدت

(١) الصوت كالصيت والصات والصيتة الذكر الحسن اه قاموس

العامل للآخرة ان امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يُسرّ اذ رجاؤه في عاقبة ماينال به عون له على مايطلب وزايد في الفرض الذي إياه يقصد . ووجدته ان عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم اذ ليس مؤاخذاً بذلك فهو غير مؤثر في ما يطلب . ورأيته ان قصد بالاذى سُرّ وان نكبته نكبة سر وان تعب فيما سلك فيه سر فهو في سرور متصل أبداً وغيره بخلاف ذلك أبدا . فاعلم انه مطلوب واحد وهو طرد الهم وليس اليه الا طريق واحد وهو العمل لله تعالى فما عداهذا فضلال وسُخف

لاتبذل نفسك الا فيما هو أعلى منها وليس ذلك الا في ذات الله عز وجل في دعاء الى حق وفي حماية الحريم وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى وفي نصر مظلوم وباذل نفسه في عرض دنيا كبائع الياقوت بالحصى

لامروءة لمن لادين له

العاقل لايرى لنفسه ثمناً الا الجنة

لاءِ بليس في ذم الرياء حُبالة وذلك انه رب ممتنع من فعل خير خوف ان يظن به الرياء

﴿ باب عظيم من أبواب العقل والراحة ﴾

وهو اطراح المبالاة بكلام الناس واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل بل هذا باب العقل كله والراحة كلها

من قدّر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون

من حقق النظر وراض نفسه على السكون الى الحقائق وان آلمها في أول صدمة كان اغتباطه بذم الناس اياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم اياه لان مدحهم اياه ان كان بحق وبلغه مدحهم له أسري ذلك فيه العجب فأفسد بذلك فضائله وان كان بباطل فبلغه فسرّه فقد صار مسروراً بالكذب وهذا نقص شديد وأما ذم الناس اياه فان كان بحق فبلغه فربما كان ذلك سبباً الى تجنبه مايعاب عليه وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه الا ناقص وان كان بباطل وبلغه فصبر اكتسب فضلا زائداً بالحلم والصبر وكان مع ذلك غانماً لانه يأخذ حسنات من ذمه بالباطل فيحظى بها في دار الجزاء أحوج مايكون الى النجاة باعمال لم يتعب فيها ولا تكلفها وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه الا مجنون وأما ان لم يبلغه مدح الناس اياه فكلامهم وسكوتهم سواء وليس

كذلك ذمهم اياه لانه غانم للاجر على كل حال بلغه ذمهم أو لم يبلغه . ولولا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الثناء الحسن « ذلك عاجل بشرى المؤمن » لوجب ان يرغب العاقل فى الذم بالباطل أكثر من رغبته فى المدح بالحق ولكن اذجاء هذا القول فانما تكون البشرى بالحق لا بالباطل فانما تجب البشرى بما فى الممدوح لا بنفس المدح

ليس بين الفضائل والرذائل ولا بين الطاعات والمعاصي إلا نفار النفس وأنسها فقط فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات ونفرت من الرذائل والمعاصي والشقي من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي ونفرت من الفضائل والطاعات وليس هاهنا الا صنع الله تعالى وحفظه

طالب الآخرة ليفوز فى الآخرة متشبه بالملائكة وطالب الشر متشبه بالشياطين وطالب الصوت والغلبة متشبه بالسباع وطالب اللذات متشبه بالبهائم وطالب المال لعين المال لا لينفقه فى الواجبات والنوافل المحمودة أسقط وأرذل من أن يكون له فى شئ من الحيوان شبه ولكنه يشبه الغدران التى فى الكهوف في المواضع الوعرة لا ينتفع

بها شيء من الحيوان فالعاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها سبع أو بهيمة أو جماد وانما يغتبط بتقدمه فى الفضيلة التي أبانه الله تعالى بها عن السباع والبهائم والجمادات وهي التمييز الذى يشارك فيه الملائكة . فمن سر بشجاعته التى يضمها فى غير موضعها لله عز وجل فليعلم ان النمر أجرأ منه وان الاسد والذئب والفيل أشجع منه ومن سر بقوة جسمه فليعلم ان البغل والثور والفيل أقوى منه جسماومن سر بحمله الاثقال فليعلم ان الحمار أحمل منه ومن سر بسرعة عدوه فليعلم ان الكلب والارنب أسرع عدواً منه ومن سر بحسن صوته فليعلم أن كثيراً من الطير أحسن صوتاً منه وان أصوات المزامير ألذ وأطرب من صوته فأي فخر وأي سرور فى ما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه . لكن من قوى تميزه واتسع علمه وحسن عمله فليغتبط بذلك فانه لا يتقدمه فى هذه الوجوه الا الملائكة وخيار الناس

قول الله تعالى « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » جامع لكل فضيلة لان نهي النفس عن الهوى هو ردعها عن الطبع الغضبي وعن الطبع

الشهواني لأن كليهما واقع تحت موجب الهوى فلم يبق الا استعمال النفس للنطق الموضوع فيها الذي به بانت عن البهائم والحشرات والسباع

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للذى استوصاه «لا تغضب» وأمره عليه السلام ان يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه جامعان لكل فضيلة لان فى نهيه عن الغضب ردع النفس ذات القوة الغضبية عن هواها وفى أمره عليه السلام ان يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ردع النفس عن القوة الشهوانية وجمع لأزمّة العدل الذى هو فائدة النطق الموضوع في النفس الناطقة

رأيت أكثر الناس إلا من عصم الله تعالى وقليل ما هم يتعجلون الشقاء والهم والتعب لأنفسهم في الدنيا ويحتقبون عظيم الاثم الموجب للنار فى الآخرة بما لا يحظون معه بنفع اصلا من نيات خبيثة يضبون(١) عليها من تمني الغلاء المهلك للناس وللصغار ومن لا ذنب له وتمني أشد البلاء لمن يكرهونه وقد علموا يقيناً أن تلك النيات الفاسدة لا تعجل لهم شيئاً مما

(١) ضبّ على الشيء وأضب احتواه ولزمه فلم يفارقه اه لسان العرب

يتمنونه أو يوجب كونه وانهم لو صفوا نياتهم وحسنوها لتعجلوا الراحة لانفسهم وتفرغوا بذلك لمصالح أمورهم ولاقتنوا بذلك عظيم الاجر فى المعاد من غير ان يؤخر ذلك شيئاً مما يريدونه أو يمنع كونه فأي غبن أعظم من هذه الحال التي نبهنا عليها وأي سعد أعظم من التي دعونا اليها

اذا حققت مدة الدنيا لم تجدها الا الآن الذي هو فصل الزمانين فقط . وأما ما مضى وما لم يأت فمعدومان كما لم يكن فمن أضل ممن يبيع باقياً خالداً بمدة هي أقل من كرّ الطرف

اذا نام المرء خرج عن الدنيا ونسي كل سرور وكل حزن فلو رتب نفسه في يقظته على ذلك أيضاً لسعد السعادة التامة

من أساء الى أهله وجيرانه فهو أسقطهم . ومن كافأ من أساء اليه منهم فهو مثلهم . ومن لم يكافئهم بإساءتهم فهو سيدهم وخيرهم وأفضلهم

﴿فصل فى العلم﴾

لو لم يكن من فضل العلم الا أن الجهال يابونك

ويجلونك وأن العلماء يحبونك ويكرمونك لكان ذلك سبباً الى وجوب طلبه فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة ولو لم يكن من نقص الجهل الا أن صاحبه يحسد العلماء ويغبط نظراءه من الجهال لكان ذلك سبباً الى وجوب الفرار عنه فكيف بسائر رذائله فى الدنيا والآخرة

لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به الا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهمّ وكفاية الافكار المؤلمة للنفس لكان ذلك أعظم داع اليه فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره ومن أقلها ما ذكرنا مما يحصل عليه طالب العلم وفى مثله أتعب ضعفاء الملوك أنفسهم فتشاغلوا عما ذكرنا بالشطرنج والنرد والخمر والاغاني وركض الدواب فى طلب الصيد وسائر الفضول التي تعود بالمضرة فى الدنيا والآخرة وأما فائدة فلا فائدة

لو تدبر العالم فى مرور ساعاته ماذا كفاه العلم من الذل بتسلط الجهال ومن الهم بتغيب الحقائق عنه ومن الغبطة بما قد بان له وجهه من الامور الخفية عن غيره لزاد حمداً لله عز وجل وغبطة بما لديه من العلم ورغبة فى المزيد منه

من شغل نفسه بأدنى العلوم وترك أعلاها وهو قادر عليه كان كزارع الذرة في الارض التي يجود فيها البرّ وكغارس الشَّعراء (١) حيث يزكو النخل والزيتون

نشر العلم عند من ليس من أهله مفسد لهم كإطعامك العسل والحلواء من به احتراق وحمّى أو كتشميمك المسك والعنبر لمن به صداع من احتدام الصفراء

الباخل بالعلم ألأم من الباخل بالمال لأن الباخل بالمال أشفق من فناء ما بيده والباخل بالعلم بخل بما لا يفني على النفقة ولا يفارقه مع البذل

من مال بطبعه الى علم ما وان كان أدنى من غيره فلا يشغلها بسواه فيكون كغارس النارجيل (٢) بالاندلس وكغارس الزيتون بالهند وكل ذلك لا ينجب

أجلّ العلوم ما قربك من خالقك تعالى وما أعانك على الوصول الى رضاه

---

(١) الشعراء بوزن حمراء ضربٌ من الخوخ وشجرة من الحمض ليس لها ورق ولها هدب تحرص عليها الابل حرصاً شديداً وتخرج عيداناً شداداً اه لسان العرب والقاموس (٢) هو جوز الهند واحدته بهاء اه قاموس

انظر في المال والحال والصحة الى من دونك . وانظر في الدين والعلم والفضائل الى من فوقك

العلوم الغامضة كالدواء القوي يصلح الأجساد القوية ويهلك الاجساد الضعيفة وكذلك العلوم الغامضة تزيد العقل القوي جودة وتصفيةً من كل آفة وتهلك ذا العقل الضعيف

من الغوص على الجنون مالو غاصه صاحبه على العقل لكان أحكم من الحسن البصري وأفلاطون الأثيني وبزرجمهر الفارسي

وقف العقل عند أنه لا ينفع ان لم يؤيد بتوفيق في الدين أو بسعد في الدنيا

لا تضر بنفسك في أن تجرب بها الآراء الفاسدة لتُري المشير بها فسادها فتهلك فان ملامة ذي الرأي الفاسد لك على مخالفته وأنت ناج من المكاره خير لك من أن يعذرك ويندم كلاكما وأنت قد حصلت في مكاره

إياك وان تسُرَّ غيرك بما تسوء به نفسك فيما لم توجبه عليك شريعة أو فضيلة

وقف العلم عند الجهل بصفات الباري عز وجل

لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها فانهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون ويفسدون ويقدّرون انهم يصلحون

من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة والاحتواء على محاسن الاخلاق كلها واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتد بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه أعاننا الله على الاقتداء به بمنه آمين

غاظني أهل الجهل مرتين من عمري (احداهما) بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلي (والثانية) بسكوتهم عن الكلام بحضرتي فهم أبداً ساكتون عما ينفعهم ناطقون فيما يضرهم وسرني أهل العلم مرتين من عمري (احداهما) بتعليمي أيام جهلي (والثانية) بمذاكرتي أيام علمي

من فضل العلم والزهد في الدنيا أنهما لا يؤتيهما الله عز وجل الا أهلهما ومستحقهما ومن نقص علوّ أحوال الدنيا من المال والصوت ان أكثر ما يقعان في غير أهلهما وفيمن لا يستحقهما

من طلب الفضائل لم يساير الا أهلها ولم يرافق في ذلك

الطريق الا أكرم صديق من أهل المواساة والبر والصدق وكرم العشيرة والصبر والوفاء والامانة والحلم وصفاء الضمائر وصحة المودة. ومن طلب الجاه والمال واللذات لم يساير الا أمثال الكلاب الكلبة والثعالب الخلبة ولم يرافق فى تلك الطريق الا كل عدو المعتقد خبيث الطبيعة

منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة وهو انه يعلم حسن الفضائل فيأتيها ولو فى الندرة ويعلم قبح الرذائل فيجتنبها ولو فى الندرة ويسمع الثناء الحسن فيرغب في مثله والثناء الرديء فينفر منه فعلى هذه المقدمات يجب أن يكون للعلم حصة فى كل فضيله وللجهل حصة فى كل رذيلة ولا يأتي الفضائل ممن لم يتعلم العلم إلا صافي الطبع جداً فاضل التركيب وهذه منزلة خص بها النبيون عليهم الصلاة والسلام لأن الله تعالى علمهم الخير كله دون أن يتعلموه من الناس

وقد رأيت من غمار العامة من يجري من الاعتدال وحميد الاخلاق الى مالا يتقدمه فيه حكيم عالم رائض لنفسه ولكنه قليل جداً ورأيت ممن طالع العلوم وعرف عهود الانبياء عليهم السلام ووصايا الحكماء وهو لا يتقدمه فى خبث

السيرة وفساد العلانية والسريرة شرار الخلق وهذا كثير جداً فعلمت أنهما مواهب وحرمان من الله تعالى

﴿ فصل في الاخلاق والسير ﴾

إحرص على ان توصف بسلامة الجانب وتحفّظ من أن توصف بالدهاء فيكثر المتحفظون منك حتى ربما أضر ذلك بك وربما قتلك

وطّن نفسك على ما تكره يقل همك اذا أتاك ولم يستضر بتوطينك أولاً ويعظم سرورك ويتضاعف اذا أتاك ماتحب مما لم تكن قدرته

اذا تكاثرت الهموم سقطت كلها

الغادر يفي للمجدود والوفي يغدر بالمحدود والسعيد كل السعيد في دنياه من لم يضطره الزمان الى اختبار الاخوان

لاتفكر فيمن يؤذيك فانك ان كنت مقبلا فهو هالك وسعدك يكفيك وان كنت مدبراً فكل أحد يؤذيك

طوبى لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها.

الصبر على الجفاء ينقسم ثلاثة أقسام: فصبر عمن يقدر عليك ولا تقدر عليه. وصبر عمن تقدر عليه ولا يقدر عليك

وصبر عمن لا تقدر عليه ولا يقدر عليك . فالاول ذل ومهانة وليس من الفضائل . والرأي لمن خشي ماهو أشد مما يصبر عليه المتاركة والمباعدة . والثاني فضل وبرّ وهو الحلم على الحقيقة وهو الذي يوصف به الفضلاء . والثالث ينقسم قسمين إما أن يكون الجفاء ممن لم يقع منه الا على سبيل الغلط ويعلم قبح ما أتى به ويندم عليه فالصبر عليه فضل وفرض وهو حلم على الحقيقة . وأما من كان لا يدري مقدار نفسه ويظن ان لها حقاً يستطيل به فلا يندم على ماسلف منه فالصبر عليه ذل للصابر وإفساد للمصبور عليه لأنه يزيد استشراءً والمقارضة له سخف والصواب إعلامه بأنه كان ممكناً أن يُنتصر منه وانه انما ترك ذلك إسترذالاً له فقط وصيانة عن مراجعته ولا يزاد على ذلك . وأما جفاء السفلة فليس جزاؤه الا النكال وحده

من جالس الناس لم يعدم همّاً يؤلم نفسه وإثماً يندم عليه في معاده وغيظاً ينضج كبده وذلاً ينكس همته فما الظن بعدُ بمن خالطهم وداخلهم . والعزّ والراحة والسرور والسلامة في الانفراد عنهم ولكن اجعلهم كالنار تدفأ بها ولا تخالطها

لو لم يكن في مجالسة الناس إلا عيبان لكفيا أحدهما الاسترسال عند الأنس بالاسرار المهلكة القاتلة التي لولا المجالسة لم يبح بها البائح والثاني مواقعة الغلبة المهلكة في الآخرة فلا سبيل الى السلامة من هاتين البليتين إلا بالانفراد عن المجالسة جملة

لا تحقر شيئاً من عمل غد أن تحققه بان تعجله اليوم وان قل فان من قليل الاعمال يجتمع كثيرها وربما أعجز أمرها عند ذلك فيبطل الكل

لا تحقر شيئا مما ترجو به تثقيل ميزانك يوم البعث أن تعجله الآن وان قل فانه يحط عنك كثيراً لو اجتمع لقذف بك في النار

الوجع والفقر والنكبة والخوف لا يحس أذاها الا من كان فيها ولا يعلمه من كان خارجا عنها وفساد الرأي والعار والإثم لا يعلم قبحها الا من كان خارجا عنها وليس يراه من كان داخلا فيها

الأمن والصحة والغنى لا يعرف حقها الا من كان خارجا

عنها وليس يعرف حقها من كان فيها. وجودة الرأي والفضائل وعمل الآخرة لا يعرف فضلها الا من كان من أهلها ولا يعرفه من لم يكن من أهلها

أول من زهد فى الغادر من غدر له الغادر. وأول من مقت شاهد الزور من شهد له به. وأول من هون الزانية فى عينه الذى يزني بها

ما رأينا شيئا فسد فعاد الى صحته إلا بعد لأيٍ[1] فكيف بدماغ يتوالى عليه فساد السكر كل ليلة وإنّ عقلا زين لصاحبه تعجيل إفساده كل ليلة لعقل ينبغي أن يتهم

الطريق تبرم والزوايا تكرم وكثرة المال ترغب وقلته تقنع

قد يحسن العاقل بتدبيره ولا يجوز أن يسعد الاحمق بتدبيره

لا شيء أضر على السلطان من كثرة المتفرغين حواليه فالحازم يشغلهم بما لا يظلمهم فيه فان لم يفعل شغلوه بما يظلمونه فيه. وأما مقرب أعدائه فذلك قاتل نفسه

كثرة وقوع العين على الشخص يسهّل أمره ويهونه

(١) اللأي كالسعي الابطاء والاحتباس والشدة اه قاموس

التهويل بلزوم تزيٍ ما والاكفهرار وقلة الانبساط ستائر جعلها الجهال الذين مكنتهم الدنيا أمام جهلهم . لا يغتر العاقل بصداقة حادثة له أيام دولته فكل أحد صديقه يومئذ

إجهد في ان تستعين في أمورك بمن يريد منها لنفسه مثل ما تريد لنفسك ولا تستعن فيها بمن حظه من غيرك كحظه منك

لا تجب عن كلام نقل اليك عن قائل حتى توقن أنه قاله فان من نقل اليك كذباً رجع من عندك بحق

ثق بالمتدين وان كان على غير دينك ولا تثق بالمستخف وان أظهر انه على دينك

من استخف بحرمات الله تعالى فلا تأمنه على شيء مما تشفق عليه

وجدت المشاركين بأرواحهم أكثر من المشاركين بأموالهم . هذا شيء طال اختباري إياه ولم أجد قط على طول التجربة سواه فأعيتني معرفة العلة في ذلك حتى قدرت انها طبيعة في البشر

من قبيح الظلم الإنكار على من أكثر الاساءة اذا

أحسن في الندرة

من استراح من عدو واحد حدث له أعداء كثيرة

أشبه ما رأيت بالدنيا خيال الظل وهى تماثيل مركبة على مطحنة خشب تدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدو أخرى

طال تعجبي فى الموت وذلك أني صحبت أقواما صحبة الروح للجسد من صدق المودة فلما ماتوا رأيت بعضهم فى النوم ولم أر بعضهم وقد كنت عاهدت بعضهم فى الحياة على التزاور في المنام بعد الموت إن أمكن ذلك فلم أره فى النوم بعد ان تقدمني الى دار الآخرة فلا أدري أنسي أم شغل

غفلة النفس ونسيانها ما كانت فيه فى دار الابتلاء قبل حلولها فى الجسد كغفلة من وقع في طين غمر عن كل ما عهد وعرف قبل ذلك ثم أطلت الفكر أيضاً في ذلك فلاح لى شعب زائد من البيان وهو أني رأيت النائم اذ همت نفسه بالتخلي من جسده وقوي حسها حتى تشاهد الغيوب قد نسيت ما كان فيه قبيل نومها نسيانا تاما البتة على قرب عهدها به وحدثت لها أحوال اخر وهى فى كل ذلك ذاكرة حساسة متلذذة آلمة ولذة النوم محسوسة في حاله لان النائم يلتذ ويحتلم

ويخاف ويحزن في حال نومه

انما تأنس النفس بالنفس فأما الجسد فمستثقل مهروم به ودليل ذلك استعجال المرء بدفن جسد حبيبه اذا فارقته نفسه وأسفه لذهاب النفس وان كانت الجثة حاضرة بين يديه

لم أر لابليس أصيد ولا أقبح ولا أحمق من كلمتين ألقاهما على ألسنة دعاته (احداهما) اعتذار من أساء بأن فلانا أساء قبله (والثانية) استسهال الانسان أن يسيء اليوم لأنه قد أساء أمس أو أن يسيء فى وجه ما لانه قد أساء فى غيره فقد صارت هاتان الكلمتان عذراً مسهلتين للشر ومدخلتين له فى حد ما يعرف ويحمل ولا ينكر

استعمل سوء الظن حيث تقدر على توفيته حقه فى التحفظ والتأهب واستعمل حسن الظن حيث لا طاقة بك على التحفظ فتربح راحة النفس

حد الجود وغايته أن تبذل الفضل كله فى وجوه البر وأفضل ذلك فى الجار المحتاج وذي الرحم الفقير وذي النعمة الذاهبة والأحضر فاقة، ومنع الفضل من هذه الوجوه داخل

في البخل وعلى قدر التقصير والتوسع في ذلك يكون المدح والذم وما وضع في غير هذه الوجوه فهو تبذير وهو مذموم وما بذلت من قوتك لمن هو أمس حاجة منك فهو فضل وإيثار وهو خير من الجود وما منع من هذا فهو لا حمد ولا ذم وهو انتصاف

بذل الواجبات فرض وبذل ما فضل عن القوت جود والايثار على النفس من القوت بما لا تهلك على عدمه فضل ومنع الواجبات حرام . ومنع ما فضل عن القوت بخل وشح والمنع من الايثار ببعض القوت عذر ومنع النفس أو الأهل القوت أو بعضه نتن ورذالة ومعصية والسخاء بما ظلمت فيه أو أخذته بغير حقه ظلم مكرر والذم جزاء ذلك لا الحمد لانك انما تبذل مال غيرك على الحقيقة لا مالك . واعطاء الناس حقوقهم مما عندك ليس جوداً ولكنه حق

حد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين والحريم وعن الجار المضطهد وعن المستجير المظلوم وعن المضيمة ظلما في المال والعرض وفي سائر سُبل الحق سواء قلّ من يعارض أو كثر والتقصير عما ذكرنا جبن وخور وبذلها في

عرض الدنيا تهوّر وحُمق. وأحمق من ذلك من بذلها في المنع عن الحقوق الواجبات قبلك أو قبل غيرك وأحمق من هؤلاء كلهم قوم شاهدتهم لا يدرون فيما يبذلون أنفسهم فتارة يقاتلون زيداً عن عمرو وتارة يقاتلون عمراً عن زيد ولعل ذلك يكون في يوم واحد فيتعرضون للمهالك بلا معنى فينقلبون الى النار أو يفرون الى العار وقد أنذر بهؤلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله « يأتي على الناس زمان لا يدري القاتل فيم قتل ولا المقتول فيم قُتل »

حد العفة أن تغضّ بصرك وجميع جوارحك عن الاجسام التي لا تحل لك فما عدا هذا فهو عهر . وما نقص حتى يُمسك عما أحل الله تعالى فهو ضعف وعجز

حد العدل أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه . وحد الجور أن تأخذه ولا تعطيه . وحد الكرم أن تعطي من نفسك الحق طائعا وتتجافى عن حقك لغيرك قادراً وهو فضل أيضا وكل جود كرم وفضل وليس كل كرم وفضل جوداً فالفضل أعم والجود أخص اذ الحلم فضل وليس جوداً والفضل فرض زدت عليه نافلة

إهمال ساعة يفسد رياضة سنة

خطأ الواحد فى تدبير الأمور خير من صواب الجماعة التي لا يجمعها واحد لان خطأ الواحد فى ذلك يستدرك وصواب الجماعة يضري على استدامة الاهمال وفي ذلك الهلاك

نوّار الفتنة لا يعقد

كانت فيّ عيوب فلم أزل بالرياضة واطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين فى الاخلاق وفى آداب النفس أعاني مداواتها حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنّه وتمامُ العدل ورياضة النفس والتصرف بأزمة الحقائق هو الاقرار بها ليتقط بذلك متقط يوما ان شاء الله . فمنها كلف فى الرضاء وافراط فى الغضب فلم أزل أداوي ذلك حتى وقفت عند ترك اظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبّط وامتنعت مما لا يحل من الانتصار وتحملت من ذلك ثقلا شديداً وصبرت على مضض مؤلم كان ربما أمرضني وأعجزني ذلك فى الرضى وكأني سامحت

نفسي فى ذلك لانها تمثلت أن ترك ذلك لؤم (ومنها) دُعابة غالبة فالذي قدرت عليه فيها إمساكي عما يغضب المازح وسامحت نفسي فيها اذ رأيت تركها من الانغلاق ومضاهيا للكبر (ومنها) عجب شديد فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب كله ولم يبق له والحمد لله أثر بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة واستعمال التواضع (ومنها) حركات كانت تولّدها غرارة الصبا وضعف الاعضاء فقصرتُ نفسي على تركها فذهبت (ومنها) محبة فى بُعد الصيت والغلبة فالذي وقفت عليه من معاناة هذا الداء الإمساك فيه عما لا يحل فى الديانة والله المستعان على الباقي مع أن ظهور النفس الغضبية اذا كانت منقادة للناطقة فضلٌ وخلق محمود (ومنها) إفراط فى الانفة بغّضت الىّ إنكاح الحُرَم جملةً بكل وجه وصعّبت ذلك فى طبيعتي وكأني توقفت عن مغالبة هذا الافراط الذي أعرف قبحه لعوارض اعترضت علىّ والله المستعان (ومنها) عيبان قد سترهما الله تعالى وأعان على مقاومتهما وأعان بلطفه عليهما فذهب أحدهما البتة ولله الحمد وكأن السعادة كانت موكّلة بي فاذا

لاح منه طالع قصدتُ طمسه وطاولني الثانى منهما فكان اذا ثارت منه مُدوده (١) نبضت عروقه فيكاد يظهر ثم يسّر الله تعالى قَدعه (٢) بضروب من لطفه تعالى حتى أخلد (ومنها) حقد مفرط قدرت بعون الله تعالى على طيّه وستره وغلبته على اظهار جميع نتائجه وأما قطعه البتة فلم أقدر عليه وأعجزني معه أن أصادق من عاداني عداوة صحيحة أبداً

وأما سوء الظن فيعدّه قوم عيباً على الاطلاق وليس كذلك الا اذا أدى صاحبه الى مالا يحل فى الديانة أو الى ما يقبح في المعاملة والا فهو حزم والحزم فضيلة

وأما الذى يعيبني به جهال أعدائي من انى لا أبالي فيما أعتقده حقا عن مخالفة من خالفته ولو أنهم جميع من على ظهر الارض وأني لا أبالي موافقة أهل بلادي في كثير من زيّهم الذي قد تعوّدوه لغير معنى فهذه الخصلة عندي من أكبر فضائلي التي لا مثيل لها ولعمري لولم تكن فيّ (وأعوذ بالله)

(١) جمع مَدّ وهو فى الاصل كثرة الماء أيام الزيادة واستعمله المصنف مجازاً عن تهيّج العيب وقوله نبضت أي تحركت (٢) أي كفّه

لكانت من أعظم متمنياتي وطلباتي عند خالقي عز وجل وأنا أوصي بذلك كل من يبلغه كلامي فلن ينفعه اتباعه الناس في الباطل والفضول اذا أسخط ربه تعالى وغبن عقله أو آلم نفسه وجسده وتكلّف مؤونةً لا فائدة فيها. وقد عابني أيضا بعض من غاب عن معرفة الحقائق أني لا آلم لنيل من نال مني واني أتعدى ذلك من نفسي الى اخواني فلا أمتعض لهم اذا نيل منهم بحضرتي وأنا أقول ان من وصفني بذلك فقد أجمل الكلام ولم يفسره والكلام اذا أجمل اندرج فيه تحسين القبيح وتقبيح الحسن ألا ترى لو أن قائلا قال ان فلانا يطأ أخته لفحش ذلك ولاستقبحه كل سامع له حتى اذا فسّر فقال هي أخته في الاسلام ظهر فحش هذا الاجمال وقبحه. وأما أنا فاني ان قلت لا آلم لنيل من نال مني لم أصدق فالألم في ذلك مطبوع مجبول في البشر كلهم لكني قد قصرت نفسي على أن لا أظهر لذلك غضبا ولا تخبطاً ولا تهيجاً فإن تيسر لي الامساك عن المقارضة جملة بأن أتأهب لذلك فهو الذي أعتمد عليه بحول الله تعالى وقوته وإن بادرني الامر لم أقارض الا بكلام مؤلم غير فاحش أتحرّى فيه الصدق ولا

أخرجه مخرج الغضب ولا الجهل وبالجملة فاني كاره هـذا إلا
لضرورة داعية اليه مما أرجو به قمع المستشري في النيل مني
أوقدع الناقل اليَّ اذا أكثر الناس مجبون لإسماع المكروه من
يسمعونه اياه على ألسنة غيرهم ولا شيء أقدع لهم من هذا الوجه
فانهم يكفون به عن نقلهم المكاره على ألسنة الناس الى الناس
وهذا شيء لا يفيد إلا إفساد الضمائر وادخال النمائم فقط . ثم
بعد هذا فان الناقل مني لا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما
إما أن يكون كاذبا واما أن يكون صادقاً فان كان كاذبا فلقد
عجّل الله لي الانتصار منه على لسان نفسه بأن حصل في جملة
أهل الكذب وبأن نبّه على فضلي بأن نسب اليَّ ما أنا منه
بريء العرض وما يعلم أكثر السامعين له كذبه إما في وقته
ذلك وإما بعد بحثهم عما قال وان كان صادقا فانه لا يخلو من
أحد ثلاثة أوجه إما أن أكون شاركته في أمر استرحت
اليه استراحة المرء الى من يقدّر فيه ثقة وأمانة فهذا أسوأ
الناس حالة وكفى به سقوطاً وضعة . وإما أن يكون عابني بما
يظن أنه عيب وليس عيباً فقد كفاني جهله شأنه وهو المعيب
لا من عاب . واما أن يكون عابني بعيب هو فيَّ على الحقيقة

وعلم مني نقصاً أطلق به لسانه فان كان صادقا فنفسي أحق بأن ألوم منه وأنا حينئذ أجدر بالغضب على نفسي مني على من عابني بالحق. وأما أمر اخواني فاني لست أمسك عن الامتعاض لهم لكني أمتعض امتعاضاً رقيقاً لا أزيد فيه على أن أندم القائل منهم بحضرتي وأجعله يتذمم ويعتذر ويخجل ويتنصل وذلك بأن أسلك به طريق ذم من نال من الناس وأن نظر المرء في أمر نفسه والتهمم باصلاحها أولى به من تتبع عثرات الناس وبأن أذكر فضل صديقي فأبكته على اقتصاره على ذكر العيب دون ذكر الفضيلة وأن أقول له انه لا يرضى بذلك فيك فهو أولى بالكرم منك فلا ترض لنفسك بهذا أو نحو هذا من القول. وأما أن أهارش القائل فأحميه وأهيج طباعه وأستثير غضبه فينبعث منه في صديقي أضعاف ما أكره فأنا الجاني حينئذ على صديقي والمعرّض له بقبيح السب وتكراره فيه وإسماعه من لم يسمعه والاغراء به وربما كنت أيضا في ذلك جانياً على نفسي مالا ينبغي لصديقي أن يرضاه لي من إسماعي الجفاء والمكروه وأنا لا أريد من صديقي أن يذب عني بأكثر من الوجه الذي

حدّدت فان تعدّى ذلك الى أن يُسابّ النائل مني حتى يُولّد بذلك أن يتضاعف النيل وأن يتعدى أيضاً اليه بقبيح المواجهة وربما الى أبويّ وأبويه على قدر سفه النائل ومنزلته من البذاءة وربما كانت منازعة بالايدى فانا مستنقص لفعله في ذلك زارٍ عليه متظلم منه غير شاكر له لكني ألومه على ذلك أشد اللوم وبالله تعالى التوفيق. وذمّني أيضاً بعض من تعسف الأمور دون تحقيق بأني أضيع مالي وهذه جملة بيانها أني لا أضيع منه إلا ما كان في حفظه نقص ديني أو إخلاق عرضي أو اتعاب نفسي فاني أرى الذي أحفظ من هذه الثلاثة واذ قلّ أجلّ في العوض مما يضيع من مالي ولو أنه كل ما ذرّت عليه الشمس. ووجدت أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل وحبّه وعلى الحق وإيثاره فما استعنت على قمع هذه الطوالع الفاسدة وعلى كل خير في الدين والدنيا الا بما في قوّتي من ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى. وأما من طبع على الجور واستسهاله وعلى الظلم واستخفافه فليئيس من أن يصلح نفسه أو يقوّم طباعه أبداً وليعلم أنه لا يفلح في دين ولا في خلق محمود. وأما

الزهو والحسد والكذب والخيانة فلم أعرفها بطبعي قط وكأنني لا حمد لي في تركها لمنافرة جبلتي إياها والحمد لله رب العالمين

من عيب حب الذكر أنه يحبط الاعمال اذا أحب عاملها أن يذكر بها فكاد يكون شركاً لأنه يعمل لغير الله تعالى وهو يطمس الفضائل لأن صاحبه لا يكاد يفعل الخير حباً للخير لكن ليذكر به

أبلغ في ذمك من مدحك بما ليس فيك لأنه نبّه على نقصك . وأبلغ في مدحك من ذمك بما ليس فيك لانه نبه على فضلك ولقد انتصر لك من نفسه بذلك وباستهدافه الى الانكار واللائمة

لو علم الناقص نقصه لكان كاملا . لا يخلو مخلوق من عيب فالسعيد من قلّت عيوبه ودقّت . أكثر ما يكون مالم يُظن فالحزم هو التأهب لما يُظن فسبحان من رتّب ذلك ليُري الانسان عجزه وافتقاره الى خالقه عز وجل

﴿ فصل في الاخوان والصداقة والنصيحة ﴾

إستبقاك من عاتبك . وزهد فيك من استهان

بسيئاتك . العتاب للصديق كالسبك للسبيكة فإما تصفو واما تطير

من طوى من اخوانك سرّه الذي يعنيك دونك أخوَنُ لك ممن أفشى سرّك لأنّ من أفشى سرك فانما خانك فقط ومن طوى سره دونك منهم فقد خانك واستخونك

لا ترغب فيمن يزهد فيك فتحصل على الخيبة والخزي

لا تزهد فيمن يرغب فيك فإنه باب من أبواب الظلم وترك مقارضة الاحسان وهذا قبيح

من امتحن بأن يخالط الناس فلا يُلقِ بوهمه كله الى من صحب ولا يبن منه الا على أنه عدوّ مناصب ولا يُصبح كل غداة الا وهو مترقب من غدر اخوانه وسوء معاملتهم مثل ما يترقب من العدو المكاشف فان سلم من ذلك فلله الحمد وان كانت الأخرى ألفي متأهباً ولم يمت هماً . وأنا أعلمك أن بعض من خالصني المودة وأصفاني اياها غاية الصفاء في حال الشدة والرخاء والسعة والضيق والغضب والرضى تغيّر عليّ أقبح تغيرٍ بعد اثني عشر عاما متصلة في غاية الصفاء ولسببٍ

لطيف جداً ما قدّرت قط أنه يؤثّر مثله في أحد من الناس وماصلح لى بعدها ولقد أهمني ذلك سنين كثيرة هماً شديداً . ولكن لا تستعمل مع هذا سوء المعاملة فتلحق بذوي الشرارة من الناس وأهل الخبِّ [1] منهم . ولكن هاهنا طريق وعرة المسلك شاقة المتكلف يحتاج سالكها الى أن يكون أهدي من القطا [2] واحذر من العقعق [3] حتى يفارق الناس راحلا الى ربه تعالى وهذه الطريق هى طريق الفوز فى الدين والدنيا يحرز صاحبها صفاء نيات ذوي النفوس السليمة والعقود الصحيحة البرآء من المكر والخديعة ويحوي فضائل الابرار وسجايا الفضلاء ويحصل مع ذلك على سلامة الدُّهاة وتخلّص الخبثاء ذوي النكراء والدّهاء وهي أن تكتم سرّ كل من وثق بك وأن لا تُفشي الى أحد من اخوانك ولا من غيرهم من سرّك ما يمكنك طيُّه بوجه ما من الوجوه وإن كان أخص الناس بك وان تنفي لجميع من ائتمنك ولا تأمن أحداً على شيء من أمرك تُشفق عليه الا

(١) الخداع والخُبث والغش (٢) طائر كالحمام أو نوع منه (٣) طائر على قدر الحمامة وشكل الغراب يوصف بالحذر وهو لا يأوي تحت سقف

لضرورة لا بدّ منها فارتدْ حينئذ واجتهد وعلى الله تعالى الكفاية . وابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك ولكل من احتاج اليك وأمكنك نفعه وان لم يعتمدك بالرغبة ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عزّ وجل ولا تبن الا على أن من احسنت اليه أوّل مضرّبك وساع عليك فإن ذوي التراكيب الخبيثة يبغضون لشدة الحسد كل من أحسن اليهم اذا رأوه في أعلى من أحوالهم . وعامل كل احد فى الانس أحسن معاملة وأضمر السلوّ عنه إن فات بعض الآفات التي تأتي مع مرور الايام والليالي تعش مسالماً مستريحاً

لا تنصح على شرط القبول ولا تشفع على شرط الاجابة ولا تهب على شرط الإثابة لكن على سبيل استعمال الفضل وتأدية ماعليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف

حد الصداقة الذى يدور على طرفي محدوده هو أن يكون المرء يسوءه مايسوء الآخر ويسرّه مايسره فما سفل عن هذا فليس صديقاً ومن حمل هذه الصفة فهو صديق وقد يكون المرء صديقاً لمن ليس صديقه وأما الذى يدخل

في باب الاضافة فهو المصادق فهذا يقتضي فعلا من فاعلين إذ قد يُحب الانسان من يُبغضه وأكثر ذلك في الآباء مع الأَبناء وفي الاخوة مع اخوتهم وبين الازواج وفيمن صارت محبته عشقاً وليس كل صديق ناصحاً لكن كل ناصح صديق فيما نصح فيه

وحد النصيحة هو أن يسوء المرء ماضر الآخر ساء ذلك الآخر أو لم يسؤه وأن يسره ما نفعه سرّ الآخر أو ساءه فهذا شرط في النصيحة زائد على شروط الصداقة

وأقصى غايات الصداقة التي لامزيد عليها من شاركك بنفسه وبماله لغير علة توجب ذلك وآثرك على من سواك . ولولا أني شاهدت مظفّراً ومباركاً صاحبي بَلَنْسِيَة لقدّرت ان هذا الخُلق معدوم في زماننا ولكني مارأيت قط رجلين استوفيا جميع أسباب الصداقة مع تأتّي الاحوال الموجبة للفرقة غيرهما

ليس شيءٌ من الفضائل أشبه بالرذائل من الاستكثار من الاخوان والاصدقاء فإن ذلك فضيلة تامة متركبة لانهم لايُكتسبون الا بالحلم والجود والصبر والوفاء والاستضلاع

والمشاركة والعفة وحسن الدفاع وتعليم العلم وبكل حالة محمودة
ولسنا نعني الشاكرية والأتباع أيام الحرمة فاولئك لصوص
الاخوان وخبث الاصدقاء والذين يظن أنهم أولياء وليسوا
كذلك ودليل ذلك انحرافهم عند انحراف الدنيا ولا نعني
أيضاً المصادقين لبعض الاطماع ولا المتنادمين على الخمر
والمجتمعين على المعاصي والقبائح والمتألفين على النيل من
اعراض الناس والأخذ في الفضول وما لا فائدة فيه فليس
هؤلاء اصدقاء ودليل ذلك ان بعضهم ينال من بعض
وينحرف عنه عند فقد تلك الرذائل التي جمعتهم وانما نعني
اخوان الصفاء لغير معنى الا الله عز وجل إما للتناصر على
بعض الفضائل الجدية واما لنفس المحبة المجردة فقط . ولكن
اذا أحصيت عيوب الاستكثار منهم وصعوبة الحال فى
إرضائهم والغرر في مشاركتهم وما يلزمك من الحق لهم عند
نكبة تعرض لهم فإن غدرت بهم أو أسلمتهم لؤمت وذممت
وإن وفيت أضررت بنفسك وربما هلكت وهذا الذي
لا يرضي الفاضل بسواه اذا تنشب في الصداقة واذا تفكرت
في الهم بما يعرض لهم وفيهم من موت أو فراق أو غدر من

يغدر منهم كاد السرور بهم لا يفي بالحزن المُمِضّ [1] من أجلهم

وليس فى الرذائل أشبه بالفضائل من محبة المدح ودليل ذلك أنّه فى الوجه سُخْف ممن يرضى به وقد جاء في الأثر في المدّاحين ما جاء إلا أنه قد ينتفع به فى الإقصار عن الشر والتزيّد من الخير وفي أن يرغب فى ذلك الخُلُق الممدوح من سمعه . ولقد صح عندي ان بعض السائسين للدنيا لقي رجلا من أهل الاذى للناس وقد قلّد بعض الاعمال الخبيثة فقابله بالثناء عليه وبأنه قد سمع شكره مستفيضاً ووصفه بالجميل والرفق منتشراً فكان ذلك سبباً الى إقصار ذلك الفاسق عن كثير من شره

بعض أنواع النصيحة يشكل تميزه من النميمة لأن من سمع انسانا يذم آخر ظالما له أو يكيده ظالماً له فكتم ذلك عن المقول فيه والمكيد كان الكاتم لذلك ظالماً مذموماً ثم ان أعلمه بذلك على وجهه كان ربما قد ولّد على الذام والكائد ما لم يبلغه استحقاقه بعدُ من الاذى فيكون ظالماً له وليس من الحق ان يقتص من الظالم بأكثر من قدر ظلمه فالتخلص من هذا الباب صعب

(١) أمضّه الجرح أوجعه ومضه لغة فيه اه لسان العرب

إلاّ على ذوي العقول. والرأي للعاقل في مثل هذا ان يحفظ المقول فيه من القائل فقط دون أن يبلّغه ما قال لئلا يقع في الاسترسال زائد فيهلك . وأما في الكيد فالواجب أن يحفظه من الوجه الذي يكاد منه بألطف ما يقدر في الكتمان على الكائد وأبلغ ما يقدر في تحفيظ المكيد ولا يزد على هذا شيأ . وأما النميمة فهي التبليغ لما سمع مما لا ضرر فيه على المبلغ اليه وبالله التوفيق

النصيحة مرتان فالاولى فرض وديانة والثانية تنبيه وتذكير وأما الثالثة فتوبيخ وتقريع وليس وراء ذلك الا التركل واللطام وربما أرشد من ذلك من البغي والاذى اللهم إلا في معاني الديانة فواجب على المرء تزداد النصح فيما رضي المنصوحُ أو سخط تأذّى الناصح بذلك أو لم يتأذ . واذا نصحت فانصح سراً لا جهراً وبتعريض لا تصريح الا أن لا يفهم المنصوح تعريضك فلا بد من التصريح ولا تنصح على شرط القبول منك فان تعدّيت هذه الوجوه فأنت ظالم لا ناصح وطالب طاعة وملك لا مؤدي حق أمانة وأخوة وليس هذا حكم العقل ولا حكم الصداقة لكن

حكم الامير مع رعيته والسيد مع عبيده

لا تكلف صديقك الا مثل ما تبذل له من نفسك فان طلبت أكثر فأنت ظالم ٠ ولا تكسب الا على شرط الفقد ٠ ولا تتولَّ الا على شرط العزل والا فانت مضرٌّ بنفسك خبيث السيرة

مسامحة أهل الاستئثار والاستغنام والتغافل لهم ليس مروءة ولا فضيلة بل هو مهانة وضعف وتضرية [1] لهم على التمادي على ذلك الخلق المذموم وتغبيط لهم به وعون لهم على ذلك الفعل السوء وانما تكون المسامحة مروءة لاهل الانصاف المبادرين الى الانصاف والايثار فهؤلاء فرض على أهل الفضل أن يعاملوهم بمثل ذلك لا سيما ان كانت حاجتهم أمسّ وضرورتهم أشد

فان قال قائل فاذا كان كلامك هذا موجبا لإسقاط المسامحة والتغافل للاخوان فيه استوى الصديق والعدو والأجنبي فى المعاملة فهذا فساد ظاهر (فنقول) وبالله التوفيق كلاما يحض الا على المسامحة والتغافل والايثار ليس لأهل التغنم لكن

(١) يقال ضري الشيء بالشي اذا اعتاده فلا يكاد يصبر عنه اه

للصديق حقاً فان أردت معرفة وجه العمل فى هذا والوقوف على نهج الحق فان القصة التي توجب الأثرة من المرء على نفسه صديقه ينبغي لكل واحد من الصديقين أن يتأمل ذلك الامر فأيهما كان أمس حاجة فيه وأظهر ضرورة لديه فحكم الصداقة والمروءة تقتضي للآخر وتوجب عليه أن يؤثر على نفسه في ذلك فان لم يفعل فهو متغنم مستكثر لا ينبغي أن يسامح البتة اذ ليس صديقاً ولا أخا فأما اذا استوت حاجتهما واتفقت ضرورتهما فحق الصداقة هاهنا أن يسارع كل واحد منهما الى الأثرة على نفسه فان فعلا ذلك فهما صديقان وان بدر أحدهما الى ذلك ولم يبادر الآخر اليه فان كانت عادته هذه فليس صديقا ولا ينبغي أن يعامل معاملة الصداقة وان كان قد يبادر هو أيضا الى مثل ذلك فى قصة أخرى فهما صديقان

من أردت قضاء حاجته بعد ان سألك إياها أو أردت ابتداءه بقضائها فلا تعمل له الا ما يريد هو لا ما تريد أنت والا فأمسك فان تعديت هذا كنت مسيئاً لا محسنا ومستحقا للوم منه ومن غيره لا للشكر ومقتضيا للعداوة لا للصداقة

لا تنقل الى صديقك ما يؤلم نفسه ولا ينتفع بمعرفته فهذا فعل الارذال ولا تكتمه ما يستضرّ بجهله فهذا فعل أهل الشر ولا يسرك أن تُمدح بما ليس فيك بل ليعظم غمك بذلك لانه نقصك ينبه الناس عليه ويسمعهم اياه وسخرية منك وهزؤ بك ولا يرضى بهذا الا أحمق ضعيف العقل. ولا تأس ان ذممت بما ليس فيك بل افرح به فإنه فضلك ينبه الناس عليه ولكن افرح اذا كان فيك ما تستحق به المدح وسواء مدحت به أولم تمدح واحزن اذا كان فيك ما تستحق به الذم وسواء ذُممت به أولم تذم

من سمع قائلا يقول فى امرأة صديقه قول سوء فلا يخبره بذلك أصلا لا سيما اذا كان القائل عيّابة وقاعاً فى الناس سليط اللسان أو دافع معرّة عن نفسه يريد ان يكثر أمثاله في الناس وهذا كثير موجود وبالجملة فلا تحدث الانسان الا بالحق وقول هذا القائل لا يُدري أحق هو أم باطل إلا أنه في الديانة عظيم فان سمع القول مستفيضاً من جماعة وعلم ان أصل ذلك القول شائع وليس راجعاً الى قول انسان واحد أو اطلع على حقيقته الا انه لا يقدر أن يوقف صديقه على ما

وقف هو عليه فليخبره بذلك بينه وبينه في رفق وليقل له ألنساء كثير أو حصّن منزلك وثقّف أهلك أو اجتنب أمراً كذا وتحفظ من وجه كذا فان قبل المنصوح وتحرّز فحظّ نفسه أصاب وان رآه لايتحفظ ولا يبالي أمسك ولم يعاوده بكلمة وتمادى على صداقته إياه فليس في أن لا يصدّقه في قوله مايوجب قطيعته فان اطلع على حقيقة وقدر أن يوقف صديقه على مثل ماوقف عليه هو من الحقيقة ففرض عليه أن يخبره بذلك وان يوقفه على الجلية فان غيّر فذلك وان رآه لا يغيّر اجتنب صحبته فانه رذل لاخير فيه ولا نقيّة . ودخول رجل متستر في منزل المرء دليل سوء لايحتاج الى غيره . ودخول المرأة في منزل رجل على سبيل التستر مثل ذلك أيضاً . وطلب دليل أكثر من هذين سخف . وواجب ان يجتنب مثل هذه المرأة وفراقها على كل حال وممسكها لايبعد عن الدياثة

الناس في أخلاقهم على سبعة مراتب فطائفة تمدح في الوجه وتذم في المغيب وهذه صفة أهل النفاق من العيّابين وهذا خلق فاش في الناس غالب عليهم : وطائفة تذم في المشهد

والمغيب وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيّابين : وطائفة تمدح في الوجه والمغيب وهذه صفة أهل الملق والطمع وطائفة تذم في المشهد وتمدح في المغيب وهذه صفة أهل السخف والنواكة . وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم في المشاهدة ويثنون بالخير في المغيب أو يمسكون عن الذم . وأما العيّابون البرآء من النفاق والقحة فيمسكون في المشهد ويذمون في المغيب وأما أهل السلامة فيمسكون عن المدح وعن الذم في المشهد والمغيب ومن كلٍ من أهل هذه الصفات قد شاهدنا وبلوناه

إذا نصحت ففي الخلاء وبكلام ليّن ولا تسند سبّ من تحدثه الى غيرك فتكون نمّاما فان خشّنت كلامك في النصيحة فذلك إغراء وتنفير وقد قال الله تعالى « فقولا له قولاً لينا » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تُنفّروا » وان نصحت بشرط القبول منك فأنت ظالم ولعلك مخطئ في وجه نصحك فتكون مطالبا بقبول خطئك وبترك الصواب

لكل شيء فائدة ولقد انتفعت بجهل أهل الجهل منفعة عظيمة وهي انه توقّد طبعي واحتدم خاطري وحمي فكري وتهيج

نشاطي فكان ذلك سبباً الى تواليف لي عظيمة المنفعة ولولا استثارتهم ساكني واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التواليف

لا تصاهر الى صديق ولا تبايعه فما رأينا هذين العملين الا سبباً للقطيعة وإن ظن أهل الجهل أن فيهما تأكيداً للصلة فليس كذلك لان هذين العقدين داعيان كل واحد الى طلب حظ نفسه والمؤثرون على أنفسهم قليل جداً فاذا اجتمع طلب كل امرئ حظ نفسه وقعت المنازعة ومع وقوعها فساد المروءة وأسلم المصاهرة مغبة مصاهرة الاهلين بعضهم بعضا لان القرابة تقتضي العدل وان كرهوه لانهم مضمرون الى مالا انفكاك لهم منه من الاجتماع في النسب الذي توجب الطبيعة لكل أحد الذب عنه والحماية له

فصل في أنواع المحبة

وقد سئلت عن تحقيق القول فيها وفي أنواعها

المحبة كلها جنس واحد ورسمها انها الرغبة في المحبوب وكراهه منافرته والرغبة في المقارضة منه بالمحبة وانما قدر الناس انها تختلف من أجل اختلاف الاغراض فيها وانما اختلفت الاغراض من أجل اختلاف الاطماع وتزايدها وضعفها أو

انحسامها فتكون المحبة لله عز وجل وفيه وللاتفاق على بعض المطالب وللأب والابن والقرابة والصديق وللسلطان ولذات الفراش وللمحسن وللمأمول وللمعشوق فهذا كله جنس واحد اختلفت أنواعه كما وصفت لك على قدر الطمع فيما ينال من المحبوب فلذلك اختلفت وجوه المحبة وقد رأينا من مات أسفاً على ولده كما يموت العاشق أسفاً على معشوقه وبلغنا عمن شهق من خوف الله تعالى ومحبته فمات. ونجد المرء يغار على سلطانه وعلى صديقه كما يغار على ذات فراشه وكما يغار العاشق على معشوقه فأدنى اطماع المحبة ممن تحب الحظوة منه والرفعة لديه والزلفة عنده اذا لم تطمع في أكثر وهذه غاية اطماع المحبين لله عز وجل ثم يزيد الطمع في المجالسة ثم في المحادثة والموازرة وهذه أطماع المرء في سلطانه وصديقه وذوي رحمه. وأقصى اطماع المحب ممن يحب المخالطة بالاعضاء اذا رجا ذلك ولذلك تجد المحب المفرط المحبة في ذات فراشه يرغب في جماعها على هيآت شتى وفى أماكن مختلفة ليستكثر من الاتصال. ويدخل فى هذا الباب الملامسة بالجسد والتقبيل وقد يقع بعض هذا الطمع فى الأب فى ولده فيتعدى الى التقبيل

والتضييق وكل ما ذكرنا انما هو على قدر الطمع فاذا انحسم الطمع عن شيء ما لبعض الأسباب الموجبة له مالت النفس الى ما تطمع فيه . ونجد المقرّ بالرؤية لله عز وجل شديد الحنين اليها عظيم النزوع نحوها لا يقنع بدرجة دونها لانه يطمع فيها . ونجد المنكر لها لا تحنّ نفسه الى ذلك ولا يتمناه أصلا لانه لا يطمع فيه ونجد يقتصر على الرضا والحلول فى دار الكرامة فقط لانه لا تطمع نفسه في اكثر . ونجد المستحل لنكاح القرائب لا يقنع منهن بما يقنع المحرّم لذلك ولا تقف محبته حيث تقف محبة من لا يطمع فى ذلك فتجد من يستحل نكاح ابنته وابنة أخيه كالمجوس واليهود لا يقف من محبتهما حيث تقف محبة المسلم بل نجدهما يتعشقان الابنة وابنة الاخ كتعشق المسلم فيمن يطمع فى مخالطته بالجماع . ولا نجد مسلما يبلغ ذلك فيهما ولو انهما أجمل من الشمس وكان هو أعهر الناس واغزلهم فان وجد ذلك في الندرة فلا تجده الا من فاسد الدين قد زال عنه ذلك الرادع فانفسح له الامل وانفتح له باب الطمع . ولا يؤمن من المسلم ان تفرط محبته لابنة عمه حتى تصير عشقاً وحتى تتجاوز محبته لها محبته لابنته وابنة أخيه وان كانتا أجمل منها لانه يطمع من

الوصول الى ابنة عمه حيث لا يطمع من الوصول الى ابنته وابنة أخيه ونجد النصراني قد أمن ذلك من نفسه في ابنة عمه أيضا لانه لا يطمع منها في ذلك ولا يأمن ذلك من نفسه في أخته من الرضاعة لانه طامع بها في شريعته . فلاح بهذا عياناً ما ذكرنا من ان المحبة كلها جنس واحد لكنها تختلف أنواعها على قدر اختلاف الاغراض فيها والا فطبائع البشر كلهم واحدة الا أن للعادة والاعتقاد الديني تأثيراً ظاهراً ولسنا نقول ان الطمع له تأثير في هذا الفن وحده لكنا نقول ان الطمع سبب الى كل هم حتى في الاموال والاحوال فاننا نجد الانسان يموت جاره وخاله وصديقه وابن عمته وعمه لأم وابن أخيه لأم وجده أبو أمه وابن بنته فاذ لا مطمع له في ماله ارتفع عنه الهم لفوته عن يده وان جل خطره وعظم مقداره فلا سبيل الى ان يمر الاهتمام لشيء منه بباله حتى اذا مات له عصبة على بُعد أو مولى على بعد وجدت له الطمع في ماله حدث له من الهم والاسف والغيظ والفكرة بفوت اليسير منه عن يده أمر عظيم وهكذا في الاحوال فنجد الانسان من أهل الطبقة المتأخرة لا يهتم لافساد غيره أمور بلده دون أمره

ولا لتقريب غيره وإبعاده حتى اذا حدث له مطمع في هذه المرتبة حدث له من الهم والفكرة والغيظ أمر ربما قاده الى تلف نفسه وتلف دنياه وأخراه . فالطمع اذاً أصل لكل ذل ولكل همّ وهو خلق سوء ذميم وضده نزاهة النفس وهذه صفة فاضلة مركبة من النجدة والجود والعدل والفهم لانه رأى قلة الفائدة في استعمال ضدها فاستعملها وكانت فيه نجدة انتجت له عزة نفسه فتنزه وكانت فيه طبيعة سخاوة نفس فلم يهتم لما فاته وكانت فيه طبيعة عدل حببت اليه القناعة وقلة الطمع . فاذن نزاهة النفس متركبة من هذه الصفات فالطمع الذي هو ضدها متركب من الصفات المضادة لهذه الصفات الاربع وهي الجبن والشح والجور والجهل . والرغبة طمع مستوفىً متزايد مستعمل ولولا الطمع ما ذل أحدٌ لأحد . وأخبرني أبو بكر بن أبي الفياض قال كتب عثمان ابن محامس على باب داره بأستجة(١) ياعثمان لا تطمع

﴿ فصول من هذا الباب ﴾

من امتحن بقرب من يكره كمن امتحن ببُعد من يحب

(١) بلد بالمغرب بالأندلس من أعمال قرطبة اه من القاموس وشرحه

ولا فرق

إذا دعا المحب في السلوّ فإجابته مضمونة ودعوته مجابة.

إقنع بمن عندك يقنع بك من عندك

السعيد في المحبة هو من ابتُلي بمن يقدر أن يُلقي عليه قفله ولا تلحقه في مواصلته تبعة من الله عز وجل ولا ملامة من الناس وصلاح ذلك ان يتوافقا في المحبة وتحريره أن يكونا خاليين من الملل فانه خلق سوء مبغّض وتمامه نوم الايام عنهما مدة انتفاع بعضهما ببعض وأنّى بذلك الا في الجنة وأما ضمانه بيقين فليس الا فيها فهي دار القرار والا فلو حصل ذلك كله في الدنيا لم تؤمن الفجائع ولقطع العمر دون استيفاء اللذة

اذا ارتفعت الغيرة فأيقن بارتفاع المحبة. الغيرة خلق فاضل متركب من النجدة والعدل لأنّ من عدل كره ان يتعدى الى حرمة غيره وان يتعدى غيره الى حرمته ومن كانت النجدة طبعاً له حدثت فيه عزة ومن العزة تحدث الأنفة من الاهتضام. أخبرني بعض من صحبناه في الدهر عن نفسه أنه ما عرف الغيرة قط حتى ابتُلي بالمحبة ففار وكان هذا المخبر فاسد الطبع خبيث التركيب الا أنه كان من أهل الفهم والجود

درج المحبة خمسة أولها الاستحسان وهو ان يتمثل الناظر صورة المنظور اليه حسنة أو يستحسن أخلاقه وهذا يدخل في باب التصادق ثم الاعجاب به وهو رغبة الناظر في المنظور اليه وفي قربه ثم الألفة وهي الوحشة اليه اذا غاب ثم الكلف وهو غلبة شغل البال به وهذا النوع يسمى في باب الغزل بالعشق . ثم الشغف وهو امتناع النوم والاكل والشرب الا اليسير من ذلك وربما أدّى ذلك الي المرض أو الى التوسوس أو الى الموت وليس وراء هذا منزلة في تناهي المحبة أصلا

﴿ فصل ﴾

كنا نظن ان العشق في ذوات الحركة والحدة من النساء أكثر فوجدنا الامر بخلاف ذلك وهو في الساكنة الحركات أكثر مالم يكن ذلك السكون بلهاً

﴿ فصل في أنواع صباحة الصور ﴾

وقد سئلت عن تحقيق الكلام فيها (فقلت) الحلاوة رقة المحاسن ولطف الحركات وخفة الإشارات وقبول النفس لاعراض الصور وان لم تكن ثمّ صفات ظاهرة

القوام جمال كل صفة على حدتها ورب جميل الصفات على انفراد كل صفة منها بارد الطلعة غير مليح ولا حسن ولا رائع ولا حلو

الروعة بهاء الاعضاء الظاهرة مع جمال فيها وهي أيضاً الفراهة والعتق

الحسن هو شيء ليس له في اللغة اسم يعبّر به عنه ولكنه محسوس في النفوس باتفاق كل من رآه وهو بُرْدٌ مكسوّ على الوجه وإشراقٌ يستميل القلوب نحوه فتجتمع الآراء على استحسانه وان لم تكن هناك صفات جميلة فكل من رآه راقه واستحسنه وقبله حتى اذا تأملت الصفات افراداً لم تر طائلا وكأنه شيء في نفس المرئي يجده نفس الرائي وهذا أجلّ مراتب الصباحة . ثم تختلف الاهواء بعد هذا فمن مفضّل للروعة ومن مفضل للحلاوة وما وجدنا أحداً قط يفضّل القوام المنفرد

الملاحة اجتماع شيء فشيء مما ذكرنا

﴿ فصل فيما يتعامل الناس به وفي الاخلاق ﴾

التلوّن المذموم هو التنقّل من زيٍّ متكلف لا معنى

له الى زي آخر مثله في التكلف وفي أنه لا معنى له ومن حال لا معنى لها الى حال لا معنى لها بلا سبب يوجب ذلك . وأما من استعمل من الزي ما أمكنه مما به اليه حاجة وترك التزيد مما لا يحتاج اليه فهذا عين من عيون العقل والحكمة كبير وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القدوة في كل خير والذي أثنى الله تعالى على خلقه والذي جمع الله تعالى فيه أشتات الفضائل بتمامها وأبعده عن كل نقص يعود المريض مع أصحابه راجلاً في أقصى المدينة بلا خفٍّ ولا نعل ولا قلنسوة ولا عمامة ويلبس الشعر اذا حضره وقد يلبس الوشي من الحبرات اذا حضره ولا يتكلف مالا يحتاج اليه ولا يترك ما يحتاج اليه ويستغني بما وجد عما لا يجد ومرة يمشي راجلا حافياً ومرة يلبس الخف ويركب البغلة الرائسة الشهباء ومرة يركب الفرس عُرْياً ومرة يركب الناقة ومرة يركب حماراً ويُردف عليه بعض أصحابه ومرة يأكل التمر دون خبز والخبز يابساً ومرة يأكل العناق[1] المشوية والبطيخ بالرُّطب والحلواء يأخذ القوت ويبذل الفضل ويترك مالا يحتاج اليه

(١) العناق كسحاب الانثى من أولاد المعز

ولا يتكلف فوق مقدار الحاجة ولا يغضب لنفسه ولا يدع الغضب لربه عز وجل

الثبات الذي هو صحة العقد والثبات الذي هو اللجاج مشتبهان اشتباهاً لا يفرق بينهما الا عارف بكيفية الاخلاق والفرق بينهما ان اللجاج هو ما كان على الباطل أو ما فعله الفاعل نصراً لما نشب [1] فيه وقد لاح له فساده أو لم يلح له صوابه ولا فساده وهذا مذموم وضده الانصاف. وأما الثبات الذي هو صحة العقد فانما يكون على الحق أو على ما اعتقده المرء حقاً مالم يلح له باطله وهذا محمود وضده الاضطراب. وإنما يلام بعض هذين لانه ضيع تدبر ما ثبت عليه وترك البحث عما التزم أحقّ هو أم باطل

حد العقل استعمال الطاعات والفضائل وهذا الحد ينطوي فيه اجتناب المعاصي والرذائل وقد نصّ الله تعالى في غير موضع من كتابه على أن من عصاه لا يعقل قال الله تعالى حاكياً عن قوم «وقالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير» ثم قال تعالى مصدّقا لهم «فاعترفوا

(١) أي دخل وتعلّق

بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير»

وحد الحمق استعمال المعاصي والرذائل . وأما التعدي وقذف الحجارة والتخليط في القول فانما هو جنون ومِرار (١) هائج . وأما الحمق فهو ضد العقل وهما ما بينا آنفاً ولا واسطة بين العقل والحمق الا السخف . وحد السخف هو العمل والقول بما لا يحتاج اليه في دين ولا دنيا ولا حميد خلق مما ليس معصية ولا طاعة ولا عوناً عليهما ولا فضيلة ولا رذيلة مؤذية ولكنه من هذر القول وفضول العمل فعلى قدر الاستكثار من هذين الأمرين أو التقلل منهما يستحق المرء اسم السخف وقد يسخف المرء في قصة ويعقل في أخرى ويحمق في ثالثة . وضد الجنون تمييز الاشياء ووجود القوة على التصرف في المعارف والصناعات وهذا الذي يسميه الاوائل النطق ولا واسطة بينهما . وأما إحكام أمر الدنيا والتودد الى الناس بما وافقهم وصلحت عليه حال المتودد من باطل أو غيره أو عيب أو ماعداه والتحيّل في إنماء المال وبُعد الصوت وتسبيب الجاه بكل ما أمكن من معصية ورذيلة فليس عقلا . ولقد كان الذين

(١) جمع مِرَّة وهي خلط من أخلاط البدن اه من المصباح المنير

صدقهم الله في أنهم لا يعقلون وأخبرنا بأنهم لا يعقلون سائسين لدنياهم مثمرين لأموالهم مدارين لملوكهم حافظين لرياستهم لكن هذا الخلق يسمّى الدهاء وضده العقل والسلامة واما إذا كان السعي فيما ذكرنا بما فيه تصاون وأنفة فهو يسمى الحزم وضده المناقي له التضييع . وأما الوقار ووضع الكلام موضعه والتوسط في تدبير المعيشة ومسايرة الناس بالمسالمة فهذه الاخلاق تسمى الرزانة وهي ضد السخف

الوفاء مركّب من العدل والجود والنجدة لان الوفيّ رأى من الجور ان لا يقارض من وثق به أو من أحسن اليه فعدل في ذلك ورأى ان يسمح بعاجل يقتضيه له عدم الوفاء من الحظ فجاد في ذلك ورأى ان يتجلد لما يتوقع من عاقبة الوفاء فشجع في ذلك

أصول الفضائل كلها أربعة عنها تتركب كل فضيلة وهي العدل والفهم والنجدة والجود

أصول الرذائل كلها أربعة عنها تتركب كل رذيلة وهي اضداد الذي ذكرنا وهي : الجور والجهل والجبن والشح

الامانة والعفة نوعان من أنواع العدل والجود

الأنزاهة فى النفس فضيلة تركبت من النجدة والجود وكذلك الصبر

الحلم نوع مفرد من أنواع النجدة

القناعة فضيلة مركبة من الجود والعدل . الحرص متولد عن الطمع والطمع متولّد عن الحسد والحسد متولد عن الرغبة والرغبة متولدة عن الجور والشح والجهل

ويتولد من الحرص رذائل عظيمة منها الذل والسرقة والغصب والزنا والقتل والعشق والهم بالفقر . والمسئلة لما بأيدي الناس تتولد فيما بين الحرص والطمع وانما فرقنا بين الحرص والطمع لأن الحرص هو إظهار ما استكن فى النفس من الطمع . والمداراة فضيلة متركبة من الحلم والصبر

الصدق مركب من العدل والنجدة . من جاء اليك بباطل رجع من عندك بحق وذلك أن من نقل اليك كذبا عن انسان حرّك طبعك فأجبته فرجع عنك بحق فتحفظ من هذا ولا تجب إلا عن كلام صح عندك عن قائله

لا شيء أقبح من الكذب وما ظنك بعيب يكون الكفر نوعا من أنواعه فكل كفر كذب فالكذب جنس والكفر

نوع تحته . والكذب متولد من الجور والجبن والجهل لأن الجبن يولّد مهانة النفس والكذاب مهين النفس بعيد عن عزتها المحمودة

رأيت الناس في كلامهم الذي هو فصل بينهم وبين الحمير والكلاب والحشرات ينقسمون أقساما ثلاثة (أحدها) من لا يبالي فيما أنفق كلامه فيتكلم بكل ما سبق الى لسانه غير محقق نصر حق ولا إنكار باطل وهذا هو الاغلب في الناس (والثاني) أن يتكلم ناصراً لما وقع في نفسه انه حق ودافعاً لما توهم انه باطل غير محقق لطلب الحقيقة لكن لجاجاً فيما التزم وهذا كثير وهو دون الاول (والثالث) واضع الكلام في موضعه وهذا أعزّ من الكبريت الاحمر

لقد طال همّ من غاظه الحق

اثنان عظمت راحتهما أحدهما في غاية المدح والآخر في غاية الذمّ وهما مطرّح الدنيا ومطرح الحياء

لو لم يكن من التزهيد في الدنيا الا أن كل انسان في العالم فانه كل ليلة اذا نام نسي كل ما يُشفق عليه في يقظته وكل ما يشفق منه وكل مايشره اليه فتجده في تلك الحال لا يذكر

ولداً ولا أهلا ولا جاهاً ولا خمولا ولا ولاية ولا عزلةً ولا فقراً ولا غنًى ولا مصيبة وكفى بهذا واعظا لمن عقل

من عجيب تدبير الله عز وجل للعالم أن كل شيء اشتدت الحاجة اليه كان ذلك أهون له وتأمل ذلك في الماء فما فوقه. وكل شيء اشتد الغنى عنه كان ذلك أعز له وتأمل ذلك في الياقوت الاحمر فما دونه

الناس فيما يعانونه كالماشي في الفلاة كلما قطع أرضاً بدت له أرضون وكلما قضى المرء سبباً حدثت له أسباب

صدق من قال إن العاقل معذّب في الدنيا وصدق من قال انه فيها مستريح. فأما تعذيبه فيما يرى من انتشار الباطل وغلبة دولته وبما يحال بينه وبينه من إظهار الحق. وأما راحته فمن كل ما يهتم به سائر الناس من فضول الدنيا

إياك ومواقفة الجليس السيء ومساعدة أهل زمانك فيما يضرك في أخراك أو في دنياك وان قلّ فإنك لا تستفيد بذلك الا الندامة حيث لا ينفعك الندم ولن يحمدك من ساعدته بل يشمت بك وأقلّ ما في ذلك وهو المضمون انه لا يبالي بسوء عاقبتك وفساد منقلبك. وإياك ومخالفة

الجليس ومعارضة أهل زمانك فيما لا يضرك في دنياك ولا في أخراك وإن قل فإنك تستفيد بذلك الأذى والمنافرة والعداوة وربما أدى ذلك الى المطالبة والضرر العظيم دون منفعة أصلا

إن لم يكن بد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الحق فأغضب الناس ونافرهم . ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق

الإتساء بالنبي صلى الله عليه وسلم في وعظ أهل الجهل والمعاصي والرذائل واجب فمن وعظ بالجفاء والاكفهرار فقد أخطأ وتعدى طريقته صلى الله عليه وسلم وصار في أكثر الامر مغريا الموعوظ بالتمادي على أمره لجاجا وحردا ومغايظة للواعظ الجافي فيكون في وعظه مسيئا لا محسنا ومن وعظ ببشر وتبسم ولين وكأنه مشير برأي ومخبر عن غير الموعوظ بما يستقبح من الموعوظ فذلك أبلغ وأنجع في الموعظة . فان لم يتقبل فلينتقل الى الموعظة بالتحشيم وفي الخلاء فإن لم يقبل ففي حضرة من يستحي منه الموعوظ فهذا أدب الله في أمره

بالقول واللين . وكان صلى الله عليه وسلم لا يواجه بالموعظة لكن كان يقول : مابالُ أقوام يفعلون كذا وقد أثنى عليه الصلاة والسلام على الرفق وأمر بالتيسير ونهى عن التنفير وكان يتخوّل بالموعظة خوف الملل وقال تعالى «ولو كنت فظاً غليظَ القلب لانفضّوا من حولك»

وأما الغلظة والشدة فانما تجب في حدّ من حدود الله تعالى فلا لين في ذلك للقادر على اقامة الحدّ خاصة . ومما ينجع في الوعظ أيضا الثناء بحضرة المسيء على من فعل خلاف فعله فهذا داعية الى عمل الخير . وما أعلم لحبّ المدح فضلاً الا هذا وحده وهو أن يقتدي به من يسمع الثناء ولهذا يجبُ أن تؤرّخ الفضائل والرذائل لينفر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره ويرغب في الحسن المنقول عمن تقدمه ويتمظ بما سلف

تأملت كل ما دون السماء وطالت فيه فكرتي فوجدت كل شيء فيه من حيّ وغير حي من طبعه إن قوي أن يخلع عن غيره من الانواع كيفياته ويلبسه صفاته فترى الفاضل يودُّ لو كان الناس فضلاء وترى الناقص يود لو كان الناس

نقصاء وترى كلّ من ذكر شيئاً يحض عليه يقول وأنا أفعل أمراً كذا وكل ذي مذهب يود لوكان الناس موافقين له وترى ذلك في العناصر اذا قوي بعضها على بعض أحاله الى نوعيته وترى ذلك في تركيب الشجر وفى تغذّي النبات والشجر بالماء ورطوبة الارض وإحالتهما ذلك الى نوعيتهما فسبحان مخترع ذلك ومدبره لاإله إلاهو

من عجيب قدرة الله تعالى كثرة الخلق ثم لاترى احداً يشبه آخر شبهاً لايكون بينهما فيه فرق. وقد سألت من طال عمره وبلغ الثمانين عاماً هل رأى الصور في ماخلا مشبهة لهذه شبهاً واحداً فقال لى لابل لكل صورة فرقها وهكذا كل مافي العالم يعرف ذلك مَن تدبر الآلات وجميع الاجسام المركبات وطال تكرر بصره عليها فانه حينئذ يميز مابينها ويعرف بعضها من بعض بفروق فيها تعرفها النفس ولا يقدر أحد يعبّر عنها بلسانه فسبحان العزيز الحكيم الذي لاتتناهى مقدوراته

من عجائب الدنيا قوم غلبت عليهم آمال فاسدة لا يحصلون منها إلا على إتعاب النفس عاجلا ثم الهمّ والاثم

آجلا كمن يتمنى غلاء الاقوات التي في غلائها هلاك الناس وكمن يتمنّى بعض الامور التي فيها الضرر لغيره وان كانت له فيها منفعة فان تأميله ما يؤمل من ذلك لا يعجل له ذلك قبل وقته ولا يأتيه من ذلك بما ليس في علم الله تعالى تكوّنه فلو تمنى الخير والرخاء لتعجل الاجر والراحة والفضيلة ولم يتعب نفسه طرفة عين فما فوقها فاعجبوا لفساد هذه الاخلاق بلا منفعة

﴿ فصل في مداواة أدواء الاخلاق الفاسدة ﴾

من امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه فان أعجب بفضائله فليفتش ما فيه من الاخلاق الدنيئة فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه فليعلم أن مصيبته الى الأبد وأنه أتم الناس نقصاً وأعظمهم عيوبا وأضعفهم تمييزاً وأول ذلك أنه ضعيف العقل جاهل ولا عيب أشد من هذين لان العاقل هو من ميّز عيوب نفسه فغالبها وسعى في قمعها والاحمق هو الذي يجهل عيوب نفسه إما لقلة علمه وتمييزه وضعف فكرته واما لانه يقدّر ان عيوبه خصال وهذا أشد عيب في الارض وفي الناس كثير يفخرون بالزنا واللياطة والسرقة والظلم

فيعجب بتأتي هذه النحوس له وبقوته على هذه المخازي (واعلم) يقيناً أنه لا يسلم إنسي من نقص حاشا الأنبياء صلوات الله عليهم فمن خفيت عليه عيوب نفسه فقد سقط وصار من السخف والضعة والرذالة والخسة وضعف التمييز والعقل وقلة الفهم بحيث لا يتخلف عنه متخلف من الارذال وبحيث ليس تحته منزلة من الدناءة فليتدارك نفسه بالبحث عن عيوبه والاشتغال بذلك عن الاعجاب بها وعن عيوب غيره التي لا تضره لا فى الدنيا ولا فى الآخرة وما أدري لسماع عيوب الناس خصلة إلا الاتعاظ بما يسمع المرء منها فيجتنبها ويسعى فى ازالة ما فيه منها بحول الله تعالى وقوته

واما النطق بعيوب الناس فعيب كبير لا يسوغ أصلا والواجب اجتنابه الا في نصيحة من يتوقع عليه الأذى بمداخلة العيب أو على سبيل تبكيت المعجب فقط في وجهه لا خلف ظهره ثم يقول للمعجب إرجع الى نفسك فاذا ميزت عيوبها فقد داويت عجبك ولا تمثل بين نفسك وبين من هو أكثر عيوبا منها فتستسهل الرذائل وتكون مقلداً لاهل الشر وقد ذُمَّ تقليد أهل الخير فكيف تقليد أهل الشر لكن مثل

بين نفسك وبين من هو أفضل منك فحينئذ يتلف عُجبك وتُفيق من هذا الداء القبيح الذي يولّد عليك الاستخفاف بالناس وفيهم بلا شك من هو خير منك فاذا استخففت بهم بغير حق استخفوا بك بحق لان الله تعالى يقول «وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها» فتولّد على نفسك أن تكون أهلاً للاستخفاف بك بل على الحقيقة مع مقت الله عزوجل وطمس مافيك من فضيلة . فان أعجبت بعقلك ففكّر في كل فكرة سوءٍ تحل بخاطرك وفي أضاليل الاماني الطائفة بك فانك تسلم نقص عقلك حينئذ . وان أعجبت بآرائك فتفكر في سقطاتك واحفظها ولا تنسها وفي كل رأي قدّرته صواباً فخرج بخلاف تقديرك وأصاب غيرك واخطأت أنت فانك ان فعلت ذلك فأقل أحوالك ان يوازن سقوط رأيك بصوابه فتخرج لا لك ولا عليك والأغلب ان خطأك أكثر من صوابك وهكذا كل أحد من الناس بعد النبيين صلوات الله عليهم . وان أعجبت بعملك فتفكر في معاصيك وفي تقصيرك وفي معاشك ووجوهه فوالله لتجدن من ذلك مايغلب على خيرك ويعفي على حسناتك فليطل همك حينئذ

وأبدل من العجب تنقصاً لنفسك . وان أعجبت بعلمك فاعلم أنه لا خصلة لك فيه وأنه موهبة من الله مجردة وهبك اياها ربك تعالى فلا تقابلها بما يسخطه فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها تولد عليك نسيان ماعلمت وحفظت . ولقد أخبرني عبد الملك بن طريف وهو من أهل العلم والذكاء واعتدال الاحوال وصحة البحث انه كان ذا حظ من الحفظ عظيم لا يكاد يمر على سمعه شيء يحتاج الى استعادته وانه ركب البحر فمرّ به فيه هولٌ شديد أنساه أكثر ما كان يحفظ وأخلّ بقوة حفظه إخلالا شديداً لم يعاوده ذلك الذكاء بعد . وانا أصابتني علة فأفقت منها وقد ذهب ما كنت أحفظ الا مالا قدر له فما عاودته الا بعد أعوام . واعلم ان كثيراً من أهل الحرص على العلم يجدّون في القراءة والاءكباب على الدروس والطلب ثم لا يُرزقون منه حظاً فليعلم ذو العلم انه لو كان بالاءكباب وحده لكان غيره فوقه فصحّ انه موهبة من الله تعالى فأيّ مكان للعجب هاهنا ماهذا الا موضع تواضع وشكر لله تعالى واستزادة من نعمه واستعاذة من سلبها . ثم تفكر أيضاً في أن ماخفي عليك وجهلته من أنواع العلم ثم من أصناف علمك

الذي تختص به فالذي أعجبت بنفاذك فيه أكثر مما تعلم من ذلك فاجعل مكان العجب استنقاصاً لنفسك واستقصاراً لها فهو أولى وتفكر فيمن كان أعلم منك تجدهم كثيراً فلتهن نفسك عندك حينئذ وتفكر في إخلالك بعلمك وانك لا تعمل بما علمت منه فلعلمك عليك حجة حينئذ ولقد كان أسلم لك لو لم تكن عالماً واعلم ان الجاهل حينئذ أعقل منك وأحسن حالا وأعذر فليسقط عجبك بالكلية ثم لعل علمك الذي تعجب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة التي لا كبير خصلة فيها كالشعر وما جرى مجراه فانظر حينئذ الى من علمه أجل من علمك في مراتب الدنيا والآخرة فهون نفسك عليك وان أعجبت بشجاعتك فتفكر فيمن هو أشجع منك ثم انظر في تلك النجدة التي منحك الله تعالى فيم صرفتها فان كنت صرفتها في معصية فأنت أحمق لانك بذلت نفسك فيما ليس ثمناً لها وان كنت صرفتها في طاعة فقد أفسدتها بعجبك ثم تفكر في زوالها عنك بالشيخوخة وانك ان عشت فستصير من عدد العيال وكالصبي ضعفاً . على اني ما رأيت العجب في طائفة أقل منه في أهل الشجاعة فاستدللت بذلك على نزاهة

أنفسهم ورفعتها وعلوها وان أعجبت بجاهك في دنياك فتفكر في مخالفيك وأندادك ونظرائك ولعلهم أخساء وضعفاء سقاط فأعلم انهم أمثالك فيما أنت فيه ولعلهم ممن يستحيا من التشبه بهم لفرط رذالتهم وخساستهم في أنفسهم وأخلاقهم ومنابتهم فاستهن بكل منزلة شاركك فيها من ذكرت لك وان كنت مالك الارض كلها ولا مخالف عليك وهذا بعيد جداً في الامكان فما نعلم أحداً ملك معمور الارض كله على قلته وضيق ساحته بالاضافة الى غامرها فكيف اذا أضيف الى الفلك المحيط فتفكر فيما قال ابن السمّاك [1] للرشيد وقد دعا بحضرته بقدح فيه ماء ليشربه فقال له يا أمير المؤمنين فلو مُنعت هذه الشربة بكم كنت ترضى أن تبتاعها ؟ فقال له الرشيد بملكي كله قال يا أمير المؤمنين فلو منعت خروجها منك بكم كنت ترضي أن تفتدي من ذلك قال بملكي كله قال يا أمير

(١) هو أبو العباس محمد بن صُبَيْح الكوفي الزاهد المشهور أخذ عن هشام بن عروة والاعمش وغيرهما وروى عنه أحمد بن حنبل وأنظاره ومن كلامه خف الله كأنك لم تطعه وارجُ الله كأنك لم تعصه ه مات بالكوفة سنة ١٨٣ ه من تاريخ ابن خلكان

المؤمنين أتغتبط بملك لا يساوي بولة ولا شربة ماء وصدق ابن السماك رحمه الله . وان كنت ملك المسلمين كلهم فاعلم أن ملك السودان وهو رجل اسود رذل مكشوف العورة جاهل بملك أوسع من ملكك . فان قلت أنا أخذته بحق فلعمري ما أخذته بحق اذا استعملت فيه رذيلة العجب واذا لم تعدل فيه فاستحي من حالك فهي حالة رذالة لا حالة يجب العجب فيها وان أعجبت بمالك فهذه أسوء مراتب العجب فانظر في كل ساقط خسيس هو أغنى منك فلا تغتبط بحالة يفوقك فيها من ذكرت (واعلم) أن عجبك بالمال حمق لانه أحجار لا تنتفع بها الا أن تخرجها عن ملكك بنفقتها في وجهها فقط والمال أيضاً غاد ورائح وربما زال عنك ورأيته بعينه في يد غيرك ولعل ذلك يكون في يد عدوك فالعجب بمثل هذا سخف والثقة به غرور وضعف . وان أعجبت بحسنك ففكر فيما يولد عليك مما تستحي نحن من اثباته وتستحي أنت منه اذا ذهب عنك بدخولك في السن وفيما ذكرنا كفاية . وان أعجبت بمدح اخوانك لك ففكر في ذم أعدائك اياك فحينئذ ينجلي عنك العجب فان لم يكن لك عدو فلا خير فيك ولا منزلة

اسقط من منزلة من لا عدو له فليست الا منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمة يحسد عليها عافانا الله . فان استحقرت عيوبك ففكر فيها لو ظهرت الى الناس وتمثل اطلاعهم عليها فحينئذ تخجل وتعرف قدر نقصك ان كانت لك مسكة من تمييز (واعلم) بأنك ان تعلمت كيفية تركيب الطبائع وتولد الاخلاق من امتزاج عناصرها المحمولة في النفس فستقف من ذلك وقوف يقين على أن فضائلك لا خصلة لك فيها وانها منح من الله تعالى لو منحها غيرك لكان مثلك وانك لو وُكلت الى نفسك لعجزت وهلكت فاجعل بدل عجبك بها شكراً لواهبك اياها واشفاقاً من زوالها فقد تتغير الاخلاق الحميدة بالمرض وبالفقر وبالخوف وبالغضب وبالهرم وارحم من مُنع ما منحت ولا تتعرض لزوال ما بك من النعم بالتعاصي على واهبها تعالى وبأن تجعل لنفسك فيما وهبك خصلة أو حقاً فتقدّر انك استغنيت عن عصمته فتهلك عاجلا وآجلا . ولقد أصابتني علة شديدة ولّدت عليّ ربواً في الطحال شديداً فولّد ذلك عليّ من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر والنزق أمراً حاسبت نفسي فيه إذ انكرت تبدّل خلقي واشتدّ عجبي

من مفارقتي لطبعي وصح عندي أن الطحال موضع الفرح اذا فسد تولد ضده [١] وان أعجبت بنسبك فهذه أسوأ من كل ما ذكرنا لأن هذا الذي أعجبت به لا فائدة له أصلا في دنيا ولا آخرة وانظر هل يدفع عنك جوعة أو يستر لك عورة أو ينفعك في آخرتك ثم انظر الى من يساهمك في نسبك وربما فيما هو أعلى منه ممن نالته ولادة الانبياء عليهم السلام ثم ولادة الخلفاء ثم ولادة الفضلاء من الصحابة والعلماء ثم ولادة ملوك العجم من الاكاسرة والقياصرة ثم ولادة التبابعة وسائر ملوك الاسلام فتأمل غبراتهم [٢] وبقاياهم ومن يدلي بمثل ما تدلي به من ذلك تجد أكثرهم أمثال الكلاب خساسة وتلفهم في غاية السقوط والرذالة والتبذل والتحلي بالصفات المذمومة فلا تغتبط بمنزلتهم فيها نظراؤك أو فوقك. ثم لعل الآباء الذين تفخر بهم كانوا فساقاً وشربة خمور ولاطة ومتعيشين ونوكى [٣] أطلقت الايام أيديهم بالظلم والجور فأنتجوا ظلماً وآثاراً قبيحة تبقى عارهم بذلك الايام ويعظم إثمهم

---

(١) ليتأمل هذا بعض الاطباء القائلين إن الطحال لا فائدة له

(٢) أي بقاياهم وهو جمع غبّر جمع لغابر (٣) جمع أنوك وهو الاحمق

والندم عليها يوم الحساب فان كان كذلك فاعلم أن الذي أعجبت به من ذلك داخل في العيب والخزي والعار والشنار لا في الاعجاب . فان أعجبت بولادة الفضلاء اياك فما أخلى يدك من فضلهم ان لم تكن أنت فاضلا وما أقل غناهم عنك في الدنيا والآخرة إن لم تكن محسنا والناس كلهم أولاد آدم الذي خلقه الله بيده وأسكنه جنته وأسجد له ملائكته ولكن ما أقلّ نفعه لهم وفيهم كل معيب وكل فاسق وكل كافر واذا فكّر العاقل في أن فضل آبائه لا يقرّبه من ربه تعالى ولا يكسبه وجاهة لم يحزها هو بسعداً وبفضله في نفسه ولا مالاً فأي معنى للاعجاب بما لا منفعة فيه وهل المعجب بذلك الا كالمعجب بمال جاره وجاه غيره وبفرس لغيره سبق كان على رأسه لجامه كما تقول العامة في أمثالها كالغبيّ يزهى بذكاء أبيه فان تعدّى بك العجب الى الامتداح فقد تضاعف سقوطك لانه قد عجز عقلك عن مقاومة ما فيك من العجب هذا ان امتُدحت بحق فكيف ان امتدحت بالكذب وقد كان ابن نوح وأبو ابراهيم وأبو لهب عمّ النبي صلى الله عليه وسلم أقرب الناس من أفضل خلق الله تعالى ومن الشرف

كله فى اتباعهم فما انتفعوا بذلك وقد كان فيمن وُلد لغير رِشدة [1] من كان الغاية في رياسة الدنيا كزيادٍ وأبي مسلم ومن كان نهاية في الفضل على الحقيقة كبعض من نجلّه عن ذكره في مثل هذا الفصل ممن يتقرّب الى الله تعالى بحبه والاقتداء بحميد آثاره وان أعجبت بقوة جسمك فتفكر في ان البغل والحمار والثور أقوى منك وأحمل للأثقال وان أعجبت بخفتك فاعلم ان الكلب والارنب يفوقانك في هذا الباب فمن العجب العجيب إعجاب ناطق بخصلة يفوقه فيها غير الناطق

واعلم ان من قدّر في نفسه عجبا أو ظنّ لها على سائر الناس فضلا فلينظر الى صبره عند ما يدهمه من همٍّ أو نكبة أو وجع أو دمّل أو مصيبة فان رأى نفسه قليلة الصبر فليعلم ان جميع أهل البلاء من المجذومين وغيرهم الصابرين أفضل منه على تأخر طبقتهم في التمييز وان رأى نفسه صابرة فليعلم انه لم يأت بشيء يسبق فيه على ما ذكرنا بل هو إما متأخر عنهم في ذلك أو مساوٍ لهم ولا مزيد ثم لينظر الى سيرته وعدله أو جوره فيما خوله الله من نعمة أو مالٍ أو خَوَل أو

(١) يقال ولد لغير رِشدة بفتح الراء وكسرها أي لغير نكاح صحيح

أتباع أو صحة أو جاه فإن وجد نفسه مقصّرة فيما يلزمه من الشكر لواهبه تعالى ووجدها حائفة في العدل فليعلم ان أهل العدل والشكر والسيرة الحسنة من المخوّلين أكثر مما هو فيه أفضل منه فان رأى نفسه ملتزمة للعدل فالعادل بعيد عن العجب البتة لعلمه بموازين الاشياء ومقادير الاخلاق والتزامه التوسط الذي هو الاعتدال بين الطرفين المذمومين فان أعجب فلم يعدل بل قد مال الى جنبة[1] الافراط المذمومة

واعلم أن التعسف وسوء الملكة لمن خوّلك الله تعالى أمره من رقيق أو رعية يدلان على خساسة النفس ودناءة الهمة وضعف العقل لان العاقل الرفيع النفس العالي الهمة إنما يغلب أكفاءه في القوة ونظراءه في المنعة وأما الاستطالة على من لا يمكنه المعارضة فسقوط في الطبع ورذالة في النفس والخلق وعجز ومهانة ومن فعل ذلك فهو بمنزلة من يتبجّح بقتل جرذ[2] أو بقتل برغوث أو بفزك قملة وحسبك بهذا ضعة وخساسة

واعلم أن رياضة الأنفس أصعب من رياضة الأسد لان

(١) أي الى ناحية وجانب (٢) الجرذ كصرد ضرب من الفأر

الأسد اذا سجنت في البيوت التي تتخذ لها الملوك أُمن شرها والنفس وان سجنت لم يؤمن شرها

العجب أصل يتفرع عنه التيه والزهوُ والكبر والنخوة والتعالي وهذه أسماء واقعة على معان متقاربة ولذلك صعب الفرق بينها على أكثر الناس فقد يكون العجب لفضيلة في المعجب ظاهرة فمن معجب بعلمه فيكفهرّ ويتعلق على الناس ومن معجب بعمله فيترفّع ويتعالى ومن معجب برأيه فيزهو (١) على غيره ومن معجب بنسبه فيتيه ومن معجب بجاهه وعلو حاله فيتكبر ويتنخّى . وأقل مراتب العجب أن تراه يتوفّر عن الضحك في مواضع الضحك وعن خفة الحركات وعن الكلام الا فيما لا بدّ له من أمور دنياه وعيب هذا أقلّ من عيب غيره ولو فعل هذه الأفاعيل على سبيل الاقتصار على الواجبات وترك الفضول لكان ذلك فضلا وموجبا لحمدهم ولكن انما يفعلون ذلك احتقاراً للناس وإعجابا بأنفسهم فحصل

(١) قال ابن سيده وقد زُهي على لفظ مالم يسم فاعله جزم به أبو زيد واحمد بن يحيى وحكى ابن السكيت زهيت وزهوت وحكى ابن دريد زها يزهو زهواً اي تكبر ومنه قولهم ما ازهاه اه من لسان العرب

لهم بذلك استحقاق الذم وإنما الاعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى حتى اذا زاد الامر ولم يكن هناك تمييز يحجب عن توفية العجب حقه ولا عقل جيد حدث من ذلك ظهور الاستخفاف بالناس واحتقارهم بالكلام وفي المعاملة حتى اذا زاد ذلك وضعف التمييز والعقل ترقّى ذلك الى الاستطالة على الناس بالاذى بالايدي والتحكم والظلم والطغيان واقتضاء الطاعة لنفسه والخضوع لها إن أمكنه ذلك فان لم يقدر على ذلك امتدح بلسانه واقتصر على ذم الناس والاستهزاء بهم . وقد يكون العُجب لغير معنى ولغير فضيلة في العجب وهذا من عجيب ما يقع في هذا الباب وهو شيء يسميه عامتنا التَّمَتْرُك وكثيراً ما نراه في النساء وفيمن عقله قريب من عقولهن من الرجال وهو عُجبُ من ليس فيه خصلة أصلاً لا علم ولا شجاعة ولا علوّ حال ولا نسب رفيع ولا مال يطغيه وهو يعلم مع ذلك أنه صفر من ذلك كله لان هذه الامور لا يغلط فيها من يقذف بالحجارة وإنما يغلط فيها من له أدنى حظ منها فربما يتوهم ان كان ضعيف العقل انه قد بلغ الغاية القصوى منها كمن له حظ من علم فهو يظن أنه عالم كامل أو كمن له نسب

مُغرِق في ظلمة وتجدهم لم يكونوا أيضاً رُفعاء في ظلمهم فتجده لو كان ابن فرعون ذي الأوتاد ما زاد على اعجابه الذي فيه أوله شيء من فروسية فهو يقدر أنه يهزم علياً ويأسر الزبير ويقتل خالداً أوله شيء من جاه رذل فهو لا يرى الإسكندر على حال أو يكون قوياً على ان يكسب مايتوفر بيده مويل يفضل عن قوته فلو أخذ بقرني الشمس لم يزد على ماهو فيه وليس يكثر العجب من هؤلاء وان كانوا عجباً لكن ممن لاحظ له من علم أصلا ولا نسب البتة ولا مال ولا جاه ولا نجدة بل تراه في كفالة غيره مهتضماً لكل من له أدنى طاقة وهو يعلم أنه خال من كل ذلك وأنه لاحظ له في شيء من ذلك ثم هو مع ذلك في حالة المزهو التياه ولقد تسببتُ الى سؤال بعضهم في رفق ولين عن سبب علو نفسه واحتقاره الناس فما وجدت عنده مزيداً على ان قال لي أنا حر لست عبد أحد فقلت له أكثر من تراه يشاركك في هذه الفضيلة فهم احرار مثلك الا قوماً من العبيد هم أطول منك يداً وأمرهم نافذ عليك وعلى كثير من الاحرار فلم أجد عنده زيادة فرجعت الى تفتيش أحوالهم ومراعاتها ففكرت في

ذلك سنين لأعلم السبب الباعث لهم على هذا العجب الذى لا سبب له فلم أزل أختبر ماتنطوي عليه نفوسهم بما يبدو من أحوالهم ومن مراميهم فى كلامهم فاستقرّ أمرهم على أنهم يقدّرون أن عندهم فضل عقل وتميّز رأي أصيل لو أمكنتهم الايام من تصريفه لوجدوا فيه متسعاً ولأداروا الممالك الرفيعة ولبان فضلهم على سائر الناس ولو ملكوا مالا لأحسنوا تصريفه فمن هاهنا تسرّب اليهم وسرى العجب فيهم وهذا مكان فيه للكلام شعب عجيب ومعارضة معترضة وهو أنه ليس شيء من الفضائل كلما كان المرء منه أعرى قوي ظنه فى أنه قد استولى عليه واستمرّ يقينه فى انه قد كمل فيه الا العقل والتمييز حتى انك تجد المجنون المطبق والسكران الطافح يسخران بالصحيح والجاهلَ الناقص يهزأ بالحكماء وأفاضل العلماء والصبيانَ الصغار يتهكّمون بالكهول والسفهاءَ الغيارين يستخفون بالعقلاء المتصاونين وضعفةَ النساء يستنقصن عقول أكابر الرجال وآراءهم وبالجملة فكلما نقص العقل توهّم صاحبه انه أوفر الناس عقلاً وأكمل تمييزاً ولا يعرض هذا فى سائر الفضائل فان العاري منها جملة يدري أنه عار منها

وانما يدخل الغلط على من له أدنى حظ منها وان قل فإنه يتوهم حينئذ إن كان ضعيف التمييز أنه عالي الدرجة فيه ودواء من ذكرنا الفقر والخمول فلا دواء لهم أنجع منه وإلا فداؤهم وضررهم على الناس عظيم جدًا فلا تجدهم الا عيّابين للناس وقاعين في الاعراض مستهزئين بالجميع مجانبين للحقائق مكبّين على الفضول وربما كانوا مع ذلك متعرّضين للمشاتمة والمهارشة وربما قصدوا الملاطمة والمضاربة عند أدنى سبب يعرض لهم . وقد يكون العجب كمينًا في المرء حتى اذا حصل على أدنى مال أو جاه ظهر ذلك عليه وعجز عقله عن قمعه وستره . ومن ظريف مارأيت في بعض أهل الضعف ان منهم من يغلبه مايضمر من محبة ولده الصغير وامرأته حتى يصفها بالعقل في المحافل وحتى انه يقول هي أعقل مني وأنا أتبرّك بوصيتها . وأمامدحه اياها بالجمال والحسن والعافية فكثير في أهل الضعف جدًّا حتى كأنه لو كان خاطبها مازاد على مايقول في ترغيب السامع في وصفها ولا يكون هذا الا في ضعيف العقل عار من العجب بنفسه

اياك والامتداح فإن كل من يسمعك لا يصدّقك وان

كنت صادقاً بل يجعل ماسمع منك من ذلك في أول معايبك وإياك ومدحَ أحدٍ في وجهه فإنه فعلُ أهل الملَق وضَعة النفوس وإياك وذمّ أحد لا بحضرته ولا في مغيبه فلك في اصلاح نفسك شغل وإياك والتفاقر فانك لاتحصل من ذلك الاعلى تكذيبك أو احتقار من يسمعك ولا منفعة لك في ذلك أصلاً إلا كفر نعمة ربك تعالى أو شكواه الى من لا يرحمك وإياك ووصف نفسك باليسار فإنك لاتزيد على اطماع السامع فيما عندك ولا تزد على شكر الله تعالى وذكر فقرك اليه وغناك عمن دونه فان هذا يكسبك الجلالة والراحة من الطمع فيما عندك

العاقل هو من لا يفارق ما أوجبه تمييزه

من سبَّب للناس الطمع فيما عنده لم يحصل الا على أن يبذله لهم ولا غاية لهذا أو يمنعهم فيلومُم ويعادونه فإذا أردت ان تعطي أحداً شيئاً فليكن ذلك منك قبل ان يسألك فهو أكرم وأنزه وأوجب للحمد

من بديع مايقع في الحسد قول الحاسد اذا سمع انساناً يُغرِب في علمٍ ما هذا شيء بارد لم يتقدم اليه ولا قاله قبله أحد

فإن سمع من بين ما قد قاله غيره قال هذا بارد وقد قيل قبله وهذه طائفة سوء قد نصبت أنفسها للقعود على طريق العلم يصدون الناس عنها ليكثر نظراؤهم من الجهال

الحكيم لا تنفعه حكمته عند الخبيث الطبع بل يظنه خبيثاً مثله وقد شاهدت أقواماً ذوي طبائع ردية وقد تصور في أنفسهم الخبيثة أن الناس كلهم على مثل طبائعهم لا يصدقون أصلاً بأن أحداً هو سالم من رذائلهم بوجه من الوجوه وهذا أسوء مايكون من فساد الطبع والبعد عن الفضل والخير ومن كانت هذه صفته لا ترجى لها معالجة أبداً وبالله تعالى التوفيق

العدل حصن يلجأ اليه كل خائف وذلك انك ترى الظالم وغير الظالم اذا رأى من يريد ظلمه دعا الى العدل وأنكر الظلم حينئذ وذمه ولا ترى أحداً يذم العدل فمن كان العدل في طبعه فهو ساكن في ذلك الحصن الحصين

الاستهانة نوع من أنواع الخيانة اذ قد يخونك من لا يستهين بك ومن استهان بك فقد خانك الانصاف فكل مستهين خائن وليس كل خائن مستهيناً . الاستهانة بالمتاع

دليل على الاستهانة برب المتاع

حالان يحسن فيهما مايقبح في غيرهما وهما المعاتبة والاعتذار فانه يحسن فيهما تعديد الأيادي وذكر الاحسان وذلك غاية القبح في ماعدا هاتين الحالتين

لاعيب على من مال بطبعه الى بعض القبائح ولو انه أشد العيوب وأعظم الرذائل مالم يظهره بقول أو فعل بل يكاد يكون أحمد ممن أعانه طبعه على الفضائل ولا تكون مغالبة الطبع الفاسد الا عن قوة عقل فاضل

الخيانة في الحرم أشد من الخيانة في الدماء

العرض أعز على الكريم من المال . ينبغي للكريم ان يصون جسمه بماله ويصون نفسه بجسمه ويصون عرضه بنفسه ويصون دينه بعرضه ولا يصون بدينه شيئاً أصلاً .

الخيانة في الاعراض أخف من الخيانة في الاموال وبرهان ذلك انه لا يكاد يوجد من لا يخون في العرض وإن قل ذلك منه وكان من أهل الفضل وأما الخيانة في الأموال وان قلت أو كثرت فلا تكون الا من رذل بعيد عن الفضل

القياس في أحوال الناس قد يكذب في أكثر الأمور

ويبطل فى الأغلب واستعمال ماعنده صفته في الدين لايجوز

المقلّد راضٍ أن يُغبن عقله ولعله مع ذلك يستعظم ان يغبن فى ماله فيخطئ في الوجهين معاً

لايكره الغبن فى ماله ويستعظمه الا لئيم الطبع دقيق الهمة مهين النفس

من جهل معرفة الفضائل فليعتمد على ما أمره الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فانه يحتوي على جميع الفضائل

ربّ مخوف كان التحرز منه سبب وقوعه . ورب سر كانت المبالغة فى طيه سبب انتشاره . ورب إعراض أبلغ في الاستراحة من إدامة النظر . وأصل ذلك كله الإفراط الخارج عن حد الاعتدال

الفضيلة وسيطة بين الافراط والتفريط فكلا الطرفين مذموم والفضيلة بينهما محمودة حائشا العقل فانه لا إفراط فيه

الخطأ فى الحزم خير من الخطأ فى التضييع

من العجائب ان الفضائل مستحسنة ومستثقلة والرذائل مستقبحة ومستخفّة

من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه فانه يلوح

له وجه تعسفه

حد الحزم معرفة الصديق من العدو . وغاية الخرق والضعف جهل العدو من الصديق

لا تسلم عدوك لظلم ولا تظلمه وساو في ذلك بينه وبين الصديق وتحفظ منه وإياك وتقريبه وإعلاء قدره فان هذا من فعل النوكى . من ساوى بين عدوه وصديقه في التقريب والرفعة فلم يزد على أن زهد الناس في مودته وسهل عليهم عداوته ولم يزد على استخفاف عدوه له وتمكنه من مقاتله وإفساد صديقه على نفسه وإلحاقه بجملة أعدائه

غاية الخير ان يسلم عدوك من ظلمك ومن تركك إياه للظلم وأما تقريبه فمن شيم النوكى الذين قد قرب منهم التلف . وغاية الشر أن يسلم صديقك من ظلمك وأما ابعاده فمن فعل من لا عقل له ومن كتب عليه الشقاء . ليس الحلم تقريب الاعداء ولكنه مسالمتهم مع التحفظ منهم

كم رأينا من فاخر بما عنده من المتاع كان ذلك سبباً لهلاكه فاياك وهذا الباب الذي هو ضر محض لا منفعة فيه أصلا

كم شاهدنا ممن أهلكه كلامه ولم نر قط أحداً ولا بلغنا

أنه أهلكه سكوته فلا تتكلم إلا بما يقربك من خالقك فان خفت ظالماً فاسكت

قلما رأيت أمراً أمكن فضيع إلا فات فلم يمكن بعد

محن الانسان في دهره كثيرة وأعظمها محنته بأهل نوعه من الانس

داء الانسان بالناس أعظم من دائه بالسباع الكلبة والأفاعي الضارية لأن التحفظ من كل ماذكرنا ممكن ولا يمكن التحفظ من الانس أصلا

الغالب على الناس النفاق ومن العجب أنه لا يجوز مع ذلك عندهم إلا من نافقهم

لو قال قائل إن في الطبائع كرية لأن أطراف الأضداد تلتقي لم يبعد من الصدق. وقد نجد نتائج الأضداد تتساوى فنجد المرء يبكي من الفرح ومن الحزن ونجد فرط المودة يلتقي مع فرط البغضة في تتبع العثرات وقد يكون ذلك سبباً للقطيعة عند عدم الصبر والانصاف

كل من غلبت عليه طبيعة ما فانه وان بلغ الغاية من الحزم والحذر فانه مصروع اذا كيد من قبلها

كثرة الرِّيَب تُعلِّم صاحبها الكذب لكثرة ضرورته الى الاعتذار بالكذب فيضرى عليه ويستسهله

أعدل الشهود على المطبوع على الصدق وجهه لظهور الاسترابة عليه إن وقع في كذبة أوهمّ بها . وأعدل الشهود على الكذاب لسانه لاضطرابه ونقض بعض كلامه بعضا

المصيبة في الصديق الناكث أعظم من المصيبة به

أشد الناس استعظاماً للعيوب بلسانه هو أشدهم استسهالاً لها بفعله ويتبين ذلك في مسافهات أهل البذاء ومشاتمات الارذال البالغين غاية الرذالة من الصناعات الخسيسة من الرجال والنساء كأهل التعيش بالزمر وكنس الحشوش والخادمين في المجازر وكناسي دور الجُمَل المباحة لكراء الجماعات والساسة للدواب فإن كل من ذكرنا أشدّ الخلق رميا من بعضهم لبعض بالقبائح وأكثرهم عيباً بالفضائح وهم أوغل الناس فيها وأشرههم بها

اللقاء يذهب بالسخائم فكأنّ نظر العين للعين يصلح القلوب فلا يسوءك التقاء صديقك بعدوك فان ذلك يفتر أمره عنده

أشد الاشياء على الناس الخوف والهم والمرض والفقر وأشدها كلها إيلاماً للنفس الهم للفقد من المحبوب وتوقع المكروه ثم المرض ثم الخوف ثم الفقر ودليل ذلك أن الفقر يستعجل ليطرد به الخوف فيبذل المرء ماله كله ليأمن والخوف والفقر يستعجلان ليطرد بهما ألم المرض فيفرّ الانسان فى طلب الصحة ويبذل ماله فيها اذا أشفق من الموت ويودّ عند تيقّنه به لو بذل ماله كله ويسلم ويفيق والخوف يستسهل ليطرد به الهمّ فيغرر المرء بنفسه ليطرد عنها الهمّ وأشد الامراض كلها ألماً وجعٌ ملازم فى عضو مّا بعينه . وأما النفوس الكريمة فالذي عندها أشد من كل ما ذكرنا وهو أسهل المخوفات عند ذوي النفوس اللئيمة . ومما قلته فى الاخلاق

انما العقل أساس فوقه الأخلاق سورُ
فخليّ العقل بالعلم والا فهو بورٌ
جاهل الاشياء أعمى لا يرى كيف يدور
وتمام العلم بالعمـ ـل والا فهو زور
وزمام العدل بالجود والا فبجور
وملاك الجود بالنجدة والجبن غرور

عفّ ان كنت غيو　　راً ما زنى قط غيور
وكمال الكل بالتقــــوى وقولُ الحق نور
ذي أصول الفضل عنهــــا حدثت بعدُ البذور

وممّا قلته أيضاً

زمام أصول جميع الفضائل　　عدلٌ وفهم وجود وباسُ
فمن هذه ركبت غيرها　　فمن حازها فهو في الناس راس
كذا الرأس فيه الامور التي　　باحساسها يُكشف الالتباس

﴿ فصل في غرائب أخلاق النفس ﴾

ينبغي للعاقل أن لا يحكم بما يبدو له من استرحام الباكي المتظلم وتشكّيه وشدة تلوّيه وتقلّبه وبكائه فقد وقفت من بعض من يفعل هذا على يقين أنه الظالم المعتدي المفرط الظلم ورأيت بعض المظلومين ساكن الكلام معدوم التشكي مظهراً لقلة المبالاة فيسبق الى نفس من لا يحقق النظر أنه ظالم وهذا مكان ينبغي التثبت فيه ومغالبة ميل النفس جملةً وأن لا يميل المرء مع الصفة التي ذكرنا ولا عليها ولكن يقصد الإنصاف بما يوجبه الحق على السواء.

من عجائب الاخلاق أن الغفلة مذمومة وأن استعمالها

محمود وانما ذلك لان من هو مطبوع على الغفلة يستعملها فى غير موضعها وفي حيث يجب التحفظ وهو مغيّب عن فهم الحقيقة فدخلت تحت الجهل فذمّت لذلك . وأما المتيقظ الطبع فانه لا يضع الغفلة الا فى موضعها الذى يذم فيه البحث والتقصي والتغافل فهماً للحقيقة واضراباً عن الطيش واستعمالا الحلم وتسكينا للمكروه فلذلك حمدت حالة التغافل وذمت الغفلة وكذلك القول في اظهار الجزع وابطانه وفي اظهار الصبر وابطانه فان اظهار الجزع عند حلول المصائب مذموم لانه عجز مُظْهره عن ملك نفسه فأظهر أمراً لا فائدة فيه بل هو مذموم في الشريعة وقاطع عما يلزم من الاعمال وعن التأهب لما يتوقع حلوله مما لعله أشنع من الامر الواقع الذي عنه حدث الجزع فلما كان اظهار الجزع مذموماً كان اظهار ضده محموداً وهو اظهار الصبر لانه ملك للنفس واطّراح لما لا فائدة فيه وإقبال على مايعود وينتفع به في الحال وفى المستأنف وأما استبطان الصبر فمذموم لانه ضعف فى الحسّ وقسوة في النفس وقلة رحمة وهذه أخلاق سوء لا تكون الا فى أهل الشر وخُبث الطبيعة وفي النفوس السبعيّة الردية فلما كان

ما ذكرنا يقبح كان ضده محموداً وهو استبطان الجزع لما في ذلك من الرحمة والشفقة والفهم بقدر الرزية فصح بهذا أن الاعتدال هو أن يكون المرء جزوع النفس صبور الجسد بمعنى أنه لا يظهر في وجهه ولا في جوارحه شيء من دلائل الجزع . ولو علم ذو الرأي الفاسد ما استضر به من فساد تدبيره في السالف لأنجح بتركه استعماله فيما يستأنف وبالله التوفيق

﴿ فصل في تطلع النفس الى مايستر عنها من كلام مسموع أو شيء مرئي أو الى المدح وبقاء الذكر ﴾

هذان أمران لا يكاد يسلم منهما أحد إلا ساقط الهمة جداً أو من راض نفسه الرياضة التامة وقمع قوة نفسه الغضبية قمعاً كاملاً أو عالي مدواة شره النفس الى سماع كلام تستر به عنها أو رؤية شيء اكتتم به دونها أن يفكر فيما غاب عنها من هذا النوع في غير موضعه الذي هو فيه بل في أقطار الارض المتباينة فإن اهتم بكل ذلك فهو مجنون تام الجنون عديم العقل البتة . وان لم يهتم لذلك فهل هذا الذي اختفي به عنه الا كسائر ما غاب عنه منه سواء بسواء ولا فرق . ثم لنزد احتجاجاً على هواه فليقل بلسان عقله لنفسه يا نفسي

أرأيت ان لم تعلمي ان ههنا شيئاً أخفي عليك أكنت تطلعين الي معرفة ذلك فلا بدّ من لا فليقل لنفسه فكوني الآن كما كنت تكونين لولم تعلمي بأنّ ههنا شيئاً ستُرَعنك فتربحي الراحة وطرد الهم وألم القلق وقبح صفة الشره وتلك غنائم كثيرة وأرباح جليلة وأغراض فاضلة سنية يرغب العاقل فيها ولا يزهد فيها إلاّ تام النقص وأما من علق وهمه وفكره بأن يبعد اسمه في البلاد ويبقى ذكره على الدهر فليتفكر في نفسه وليقل لها يانفس أرأيت لوذكرت بأفضل الذكر في جميع أقطار المعمور أبد الأبد الى انقضاء الدهر ثم لم يبلغني ذلك ولا عرفت به أكان لي في ذلك سرور أو غبطة أم لا فلا بدّ من لا ولا سبيل الى غيرها ألبتة فاذا صحّ وتيقن فليعلم يقيناً أنه اذا مات ولا سبيل له الى علم أنه يذكر أو انه لا يذكر وكذلك ان كان حياً اذا لم يبلغه ثم ليتفكر أيضا في معنيين عظيمين أحدهما كثرة من خلا من الفضلاء من الانبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم أوّلاً الذين لم يبق لهم على أديم الارض عند أحد من الناس اسمٌ ولا رسم ولا ذكر ولا خبر ولا أثر بوجه من الوجوه ثم من

الفضلاء الصالحين من أصحاب الانبياء السالفين والزهاد ومن الفلاسفة والعلماء والاخيار وملوك الأمم الدائرة وبُناة المدن الخالية وأتباع الملوك الذين أيضاً قد انقطعت أخبارهم ولم يبق لهم عند أحد علم ولا لأحد بهم معرفة أصلا البتة فهل ضر من كان فاضلاً منهم ذلك أو نقص من فضائلهم أو طمس من محاسنهم أو حط درجتهم عند بارئهم عز وجل ومن جهل هذا الامر فليعلم انه ليس في شيء من الدنيا خبر عن ملوك من ملوك الاجيال السالفة أبعد مما بأيدي الناس من تاريخ ملوك بني اسرائيل فقط ثم ما بأيدينا من تاريخ ملوك اليونان والفرس وكل ذلك لا يتجاوز ألفي عام فأين ذكر من عمر الدنيا قبل هؤلاء أليس قد دثر وفني وانقطع ونسي البتة ؟ وكذلك قال الله تعالى « ورسلاً لم نقصصهم عليك » وقال تعالى « وقروناً بين ذلك كثيراً » وقال تعالى « والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله » فهل الانسان وان ذكر برهة من الدهر الا كمن خلا قبل من الامم الغابرة الذين ذكروا ثم نُسوا جملة . ثم ليتفكر الانسان في من ذكر بخير أو بشر هل يزيده ذلك عند الله عز وجل درجة أو يكسبه فضيلة لم

يكن حازها بفعله أيام حياته فاذا كان هذا كما قلناه فالرغبة في الذكر رغبة غرور ولا معنى له ولا فائدة فيه أصلاً لكن انما ينبغي أن يرغب الانسان العاقل في الاستكثار من الفضائل وأعمال البرّ التي يستحق من هي فيه الذكر الجميل والثناء الحسن والمدح وحميد الصفة فهي التي تقرّبه من بارئه تعالى وتجعله مذكوراً عنده عزّ وجل الذكر الذي ينفعه ويحصل على بقاء فائدته ولا يبيد أبد الأبد وبالله تعالى التوفيق

شكر المنعم فرض واجب وانما ذلك بالمقارضة له بمثل ما أحسن فاكثر ثم بالتهمم بأموره والتأتّي بحسن الدفاع عنه ثم بالوفاء له حياً وميتاً ولمن يتصل به من ساقةٍ وأهل كذلك ثم بالتمادي على ودّه ونصيحته ونشر محاسنه بالصدق وطيّ مساويه ما دمت حيا وتوريث ذلك عقبك وأهل ودّك . وليس من الشكر عونه على الآثام وترك نصيحته فيما يوتغ به دينه ودنياه بل من عاون من أحسن اليه على باطل فقد غشّه وكفر إحسانه وظلمه وجحد انعامه وأيضاً فانّ احسان الله تعالى وإنعامه على كل حال أعظم وأتم وأهنأ من نعمة كل منعم دونه عز وجل فهو تعالى الذي شق لنا الابصار

الناظرة وفتق فينا الآذان السامعة ومنحنا الحواس الفاضلة ورزقنا النطق والتمييز اللذين بهما استأهلنا أن يخاطبنا وسخّر لنا ما في السموات وما في الارض من الكواكب والعناصر ولم يفضّل علينا من خلقه شيئاً غير الملائكة القدّسين الذين هم عمّار السموات فقط فأين تقع نِعَم المنعمين من هذه النعم فمن قدّر أنه يشكر محسناً اليه بمساعدته على باطل أو بمحاباته فيما لا يجوز فقد كفر نعمة أعظم المنعمين وجحد احسان أجلّ المحسنين اليه ولم يشكر ولي الشكر حقاً ولا حمد أهل الحمد أصلا وهو الله عز وجل ومن حال بين المحسن اليه وبين الباطل وأقامه على مرّ الحق فقد شكره حقا وأدّى واجب حقه عليه مستوفى ولله الحمد أولاً وآخراً وعلى كل حال

﴿فصل في حضور مجالس العلم﴾

اذا حضرت مجلس علم فلا يكن حضورك الا حضور مستزيد علماً وأجراً لا حضور مستغن بما عندك طالبا عثرة تشيعها أو غريبة تشنعها فهذه أفعال الأرذال الذين لا يفلحون في العلم أبداً فاذا حضرتها على هذه النية فقد حصلت خيراً على كل حال وان لم تحضرها على هذه النية فجلوسك في

منزلك أروح لبدنك وأكرم لخلقك وأسلم لدينك فاذا حضرتها كما ذكرنا فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها وهى إما أن تسكت سكوت الجهال فتحصل على أجر النية فى المشاهدة وعلى الثناء عليك بقلة الفضول وعلى كرم المجالسة ومودة من تجالس . فان لم تفعل ذلك فاسئل سؤال المتعلم فتحصل على هذه الاربع محاسن وعلى خامسة وهي استزادة العلم . وصفة سؤال المتعلم أن تسئل عما لا تدري لاعما تدري فان السؤال عما تدريه سخف وقلة عقل وشغل لكلامك وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك وربما أدى الى اكتساب العداوات وهو بعد عين الفضول فيجب عليك أن لا تكون فضوليا فإنها صفة سوء فان أجابك الذى سألت بما فيه كفاية لك فاقطع الكلام وان لم يجبك بما فيه كفاية أو أجابك بما لم تفهم فقل له لم أفهم واستزده فان لم يزدك بيانا وسكت أو أعاد عليك الكلام الاول ولا مزيد فأمسك عنه وإلا حصلت على الشر والعداوة ولم تحصل على ما تريد من الزيادة

والوجه الثالث أن تراجع مراجعة العالم وصفة ذلك أن تعارض جوابه بما ينقضه نقضا بينا فان لم يكن ذلك عندك

ولم يكن عندك الا تكرار قولك أو المعارضة بما لا يراه خصمك معارضة فأمسك فانك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر ذلك ولا على تعليم ولا على تعلم بل على الغيظ لك وخصمك والعداوة التي ربما أدّت الى المضرّات واياك وسوء آل المحنت ومراجعة المكابر الذي يطلب الغلبة بغير علم فهما خُلقا سوء دليلان على قلة الدين وكثرة الفضول وضعف العقل وقوة السخف وحسبنا الله ونعم الوكيل

واذا ورد عليك خطاب بلسان أو هجمت على كلام في كتاب فإياك أن تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المغالبة قبل أن تتبين بطلانه ببرهان قاطع . وأيضا فلا تقبل عليه إقبال المصدّق به المستحسن إياه قبل علمك بصحته ببرهان قاطع فتظلم في كلا الوجهين نفسك وتبعد عن ادراك الحقيقة ولكن أقبل عليه اقبال سالم القلب عن النزاع عنه والنزوع اليه ولكن اقبال من يريد حظ نفسه في فهم ماسمع ورأى فالتزيّد به علماً وقبوله ان كان حسناً أو ردّه ان كان خطأً فمضمون لك ان فعلت ذلك الاجر الجزيل والحمد الكثير والفضل العميم

من اكتفى بقليله عن كثير ما عندك فقد ساواك في

الغني ولو أنك قارون حتى اذا تصاون في الكسب عما تشره أنت اليه فقد حصل أغنى منك بكثير ومن ترفّع عما تخضع اليه من أمور الدنيا فهو أعز منك بكثير

فرض على الناس تعلّم الخير والعمل به فمن جمع الامرين فقد استوفى الفضيلتين معاً ومن علمه ولم يعمل به فقد أحسن في التعليم وأساء في ترك العمل به فخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وهو خير من آخر لم يعلمه ولم يعمل به وهذا الذي لا خير فيه أمثل حالا وأقل ذماً من آخر ينهي عن تعلّم الخير ويصدّ عنه ولو لم ينه عن الشر إلا من ليس فيه منه شيء ولا أمر بالخير إلا من استوعبه لما نهى أحد عن شرّ ولا أمر بخير بعد النبي صلى الله عليه وسلم وحسبك بمن أدى رأيه الى هذا فساداً وسوء طبع وذم حال وبالله تعالى التوفيق

قال أبو محمد رضي الله عنه فاعترض هاهنا انسان فقال كان الحسن رضي الله عنه اذا نهى عن شيء لا يأتيه أصلاً واذا أمر بشيء كان شديد الأخذ به وهكذا تكون الحكمة وقد قيل أقبح شيء في العالم أن يأمر بشيء لا يأخذ به في نفسه أو ينهى عن شيء يستعمله (قال أبو محمد) كذب قائل هذا وأقبح

منه من لم يأمر بخير ولا نهى عن شرّ وهو مع ذلك يعمل الشر ولا يعمل الخير. قال أبو محمد وقد قال أبو الاسود الدؤلي

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عارٌ عليك اذا فعلت عظيم
وابدأ بنفسك فانهها عن غيّها فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُقبل ان وعظت ويُقتدى بالعلم منك وينفع التعليم

قال أبو محمد ان أبا الاسود انما قصد بالانكار المجيء بما نهى عنه المرء وأنه يتضاعف قبحه منه مع نهيه عنه فقد أحسن كما قال الله تعالى «أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم» (ولا يظن بأبي الأسود الا هذا) وأما أن يكون فهي عن النهي عن الخلق المذموم فنعوذ نعيذه بالله من هذا نهو فعل من لا خير فيه وقد صح عن الحسن أنه سمع انسانا يقول لا يجب أن ينهى عن الشر إلا من لا يفعله فقال الحسن ودّ إبليس لو ظفر منا بهذه حتى لا ينهى أحد عن منكر ولا يأمر بمعروف وقال أبو محمد صدق الحسن وهو قولنا آنفاً جعلنا الله ممن يوفق لفعل الخير والعمل به وممن يبصر رُشدَ نفسه فما أحد إلاّ له عيوب اذا نظرها شغلته عن غيره وتوفانا على سنة محمد صلى الله عليه وسلم آمين رب العالمين

﴿ فهرست الكتاب ﴾

صحيفه

٢ خطبة الناشر

٣ ترجمة المؤلف

٥ مؤلفاته

٧ خطبة المؤلف

٨ فصل في مداواة النفوس واصلاح الاخلاق

١٣ باب عظيم من أبواب العقل والراحة

١٧ فصل فى العلم

٢٣ فصل في الاخلاق والسير

٣٩ فصل في الاخوان والصداقة والنصيحة

٥٢ فصل في أنواع المحبة

٥٦ فصول من هذا الباب

٥٩ فصل فيما يتعامل الناس به وفى الاخلاق

٧٠ فصل فى مداواة أدواء الاخلاق الفاسدة

٩٥ فصل في غرائب أخلاق النفس

٩٧ فصل فى تطلّع النفس الى ماتستّر به عنها

١٠١ فصل فى حضور مجالس العلم